ملاحظات وانطباعات

من رحلة العراق

بعد أربعة عقود من الغياب

غسان نعمان ماهر الكنعاني

كاتب وباحث ومؤلف في
المواضيع الدينية والسياسية والطبية
ومناهج اللغة العربية المدرسية

ghassanmahir@gmail.com

المحتوى

- ❖ مقدمة
- ❖ مكان جديد قديم
- ❖ المحلة التي تغيرت
- ❖ راس شارعنا كراج غسل وتشحيم!
- ❖ عندما تصغر الشوارع دون هدم!
- ❖ البُيَيْت!
- ❖ بيتنا الذي تبخّر!
- ❖ جامع مصطفى العمري الذي "طمس"!
- ❖ مسجد في حديقة عامة صغيرة... المساحات الخضراء تآكلت
- ❖ كلية بغداد بجانبيها: العصيّ على التغيير والذي تغير نحو الأسوأ
- ❖ كيف فاجأت أخي الأكبر
- ❖ الكرخ والرصافة في زيارة بالكوستر!
- ❖ مبنى المدني القديم "يخرّ" من الخارج
- ❖ يوم أحد زكريا في بيت أخي
- ❖ بيوت الإخوة والأصهار بين الغربة والإلفة
- ❖ زيارة من ثلاثة أجيال!
- ❖ مقهى في شارع الضباط
- ❖ النّصّة: سمك الجّرّي مع التمن الأحمر!
- ❖ والنّصّة أيضاً
- ❖ الكريعات وقد ودّعت معظم مشاتلها
- ❖ فجأة على كورنيش الصليخ!
- ❖ وفجأة في شارع أبي طالب!

- ❖ وفجأة في شارع 14 رمضان!
- ❖ زيارة الكاظمية – الإمامان الكاظم والجواد (عليهما السلام)
- ❖ زيارة كربلاء – العباس بن علي (عليه السلام)
- ❖ زيارة كربلاء – الإمام الحسين (عليه السلام)
- ❖ زيارة النجف – الإمام علي (عليه السلام)
- ❖ زيارة الكوفة – مسجد الكوفة التاريخي
- ❖ زيارة سامراء (المنقوصة) الإمامان العسكريان (عليهما السلام)
- ❖ مراقد عديدة تنتظر
- ❖ توصيل الطعام إلى المنازل
- ❖ والتسوق عبر الانترنت
- ❖ شعر بنات شعر بنات!
- ❖ شارع المتنبي: زيارة لم تتم ... مرتين
- ❖ مرافق تسلية وخرجات حديثة – حسب الرواية والصور
- ❖ الأسعار... مقارنة بلندن
- ❖ الناس المتشائمون
- ❖ الناس المتفائلون
- ❖ الذين يترحمون على اللعين
- ❖ عقدة إيران في العراق: كما نعلمها
- ❖ مطار بغداد: قمة الأخلاق وقاع النظافة!
- ❖ صور الرموز الدينية المبالغ فيها
- ❖ الوطنية والمولّدة
- ❖ زيارة مقبرة الكرخ – قبر أمي
- ❖ زيارة مقبرة وادي السلام – وقبر والدة زوجتي
- ❖ رفيق الزيارات ودليلها
- ❖ جسور وطرق تختصر المسافات

❖ **مجمع سكني حديث جميل**

❖ **القرآن والأذان بين القاهرة وبغداد**

❖ **الأُنس بالناس والطرقات وكل شيء**

❖ **مضيفتنا: السيدة عالية الهلالي – خدمة عشر نجوم!**

❖ **هل من اقتراحات؟!**

❖ **هوامش التعريف بالشخصيات**

مقدمة

لماذا لم أزر العراق مذ غادرته في 5 نيسان 1982 إلا في شباط 2023، أي بعد ما يقرب من 41 سنة؟

الجواب: نحو 21 سنة من هذه كان الحكم الساقط، أما الـ 20 سنة بعدها فبعضها لأسباب موضوعية، وبعضها لا أعلم لماذا!

على أية حال، بكل تأكيد ستكون البلاد، أي بلاد، قد تغيرت بعد 4 عقود، كيف وتلك العقود الأربعة العراقية كانت سلسلة من الأحداث الكبرى التي عصفت بالمجتمع والوطن، ولحد الآن. هذا إضافة إلى الإخبار من الذين زاروا العراق خلال تلك المدة، ولا سيما من كانوا كانوا يزورونها مرة بعد كل زمان ليس بالقصير، فكانوا يشاهدون التغيير الكبير في كل شيء.

هذه اللقطات هي من زيارتي ما بين 15 شباط وحتى 15 آذار 2023، أي نحو 4 أسابيع (وإن قضيت نحو أسبوع منها في الدار، وذلك لأسباب مرضية). اللقطات ليست مرتبة حسب التسلسل الزمني في الزيارة.

*

مكان جديد قديم

كان وصولنا مساء في أيام زيارة وفاة الإمام الكاظم (ع)، وبالتالي فالطرق مقطوعة، ولهذا استغرق الوصول إلى الدار (حيث نزلنا في دار أخت زوجتي) في منطقة الكريعات شمال بغداد نحو ساعتين ونصف، كانت مناسبة لجولة اطلاع أولي على الكثير من المناطق في الكرخ والرصافة... بدت المدينة غريبة، وإن نجحت في معرفة بعض النقاط الرئيسة كالتقاء آخر شارع أبو نؤاس بالباب الشرقي، ثم حديقة الأمة – لا بأس أليس كذلك؟!

وعلى أنني أعرف منطقة الكريعات، حيث زرت في الماضي البعيد بعض مشاتلها الكثيرة، كما كنت أزور عمي المرحوم عبد القادر ماهر في داره هناك بعد فتح شوارع كانت جديدة وقتها، إلا أنني لم أعرفها – فالشوارع الفرعية السكنية كثيرة، ولعل معظم المشاتل تحولت إلى مناطق سكنية.

هذه الحالة سادت في جميع المناطق التي زرتها... وأولها محلتنا...

*

المحلة التي تغيرت

محلة "نجيب باشا" محلة شهيرة، تقع في قضاء الأعظمية، بين الوزيرية وبداية الأعظمية والصليخ (بين شارع المغرب جنوباً وشارع المشاتل المنتهي عند ساحة عنتر شمالاً، وبين شارع أبي طالب (الواقع بين باب المعظم ومنطقة راغبة خاتون) شرقاً وشارع الإمام الأعظم (الواقع بين باب المعظم وجسر الأئمة) غرباً). ولدت فيها، درست في مدرسة الحريري الابتدائية الواقعة فيها، تزوجت منها، وغادرت العراق منها – فلم أسكن في مكان غيرها. حتى في المراحل الدراسية الأخرى، فقد كانت المتوسطة والثانوية في كلية بغداد الواقعة في الصليخ، والجامعة في كلية الهندسة باب المعظم – يعني قريباً منها.

لقد تغيرت المحلة بشكل كبير جداً يصعب معه التعرف على شوارعها وبيوتها ومرافقها الأخرى... كل بيت صار بيتين وبعضها ثلاثة (قيل لي أن بعضها صار خمسة أو أكثر!)، ولو أن أي بيت يبني مكان بيت آخر لتغيرت الملامح فما بالك ببيوت كثيرة حلت محل ما سبق... بالكاد تتعرف على بيت أو بيتين مما كان، لأنها واضحة القدم بعد أن كانت يومها من أحدث ما بني في المحلة.

ولا تسل عن الشوارع الرئيسة التي تحد المحلة – هاك ما حل بها:

1 / شارع المغرب الذي يحد المحلة من الجنوب – عندما غادرت كان كله بيوت سكنية، ما عدا على طول جهته القريبة من المحلة محل قرطاسية واحد (كراج من بيت)

ثم مستشفى حسني الآلوسي رحمه الله (أخصائي الأنف والأذن والحنجرة) وقاعة الرباط، وعلى طول جهته المقابلة ناصية فيها النادي الأهلي (وكان بشكل بيت خفي لأنه نادي مشروبات كحولية) ولا شيء إلى آخر الشارع قرب ساحة المغرب عند شارع الإمام الأعظم حيث مستشفى الخيّال ومحل صغير وصيدلية الحضارة وإلى جانبه على الساحة محل دجاج مشوي. إذهب اليوم وانظر تجد محلات تجارية وعيادات أطباء وصيدليات من الرأس إلى الرأس! وكل قليل أقول: ما هذا؟ بيت رياض صديقي صار معرض؟! بداية شارع بيت خالي صار محل تجاري؟! ما هذا، كأنه مجمع طبي في شارع لا في عمارة!

ولأن قطع أسماء المحلات كبيرة جداً، وملونة، وبالإضاءة، فإنك تشعر أن جانبي الشارع يطبقان على الشارع ومن يسير فيه، ما يجعله يبدو أصغر مما كان بكثير.

2 / شارع المشاتل – وهو على الجانب الآخر، أي من الجهة الشمالية، لا تزال فيه بعض المشاتل، ولكن صار كعبة مربّي الحيوانات المنزلية! سألت: هل هناك حيوانات منزلية إلى هذا الحد بحيث هناك ليس فقط باعتها ولكن محلات طعامها، وعيادات البيطرة؟! طبعاً، تطعيم هذه المحلات بالمطاعم المختلفة لا بد منه...

3 / شارع أبي طالب – الجانب الشرقي من المحلة، المحلات مستمرة على الجانبين، والمطاعم، وطبعاً مع قطع أسماء المحلات الكبيرة الملونة المضيئة، حتى أن مئذنة مسجد مصطفى العمري على وشك أن تطمس – صحيح أنها ليست عالية لأن المسجد كله صغير، ولكنها مئذنة على أية حال، بالكاد تظهر.

4 / شارع الإمام الأعظم – الجانب الشمالي من المحلة، نفس الحال، وهو ما يستمر إلى ما بعد المحلة، حيث ساحة عنتر ثم الدخول في سوق الأعظمية بدءاً من كلية العلوم سابقاً واستمراراً إلى جسر الأئمة مروراً برأس الحواش (حيث يتفرع من هناك الشارع الرئيس الذي يؤدي إلى المقبرة الملكية في محلة السفينة قرب النهر) – محلات كثيرة، بألوان وأشكال، وأكثرها حديث تبدو بتصاميم جيدة ونظيفة، ومنوعة في الذي تبيع.

بالجملة، شوارع كانت عليها مساكن بنسبة 90%، صارت المساكن بنسبة 0% تقريباً.

*

راس شارعنا كراج غسل وتشحيم!

الذي أزعجني هو أنه في رأس شارعنا (شارع أم الربيعين، ثم شارع عزيز أحمد شهاب، ثم صارت الأسماء أرقاماً) هناك كراج غسل وتشحيم السيارات، وبقطعة كبيرة جداً. وما يزعج أكثر أنه – وهو كراج يستقبل سيارات في عمله اليومي – حفر الشارع أمامه بالضبط ربما تجعل جسمك يؤلمك عندما تسير فيه السيارة أو التاكسي... نعم الحفر في الشوارع واضحة، ولكن هذه كانت أكبر.

*

عندما تصغر الشوارع دون هدم!

محلة نجيب باشا من المحلات البغدادية فئة د، وهي أعلى فئة، ما يعني وجوب ترك مسافة 4 أمتار على الأقل بين الدار وحدود قطعة الأرض المقامة عليها، أي الجدار الأمامي على الشارع والجدران الثلاثة مع الجيران، وكان هذا يعني وجود حديقة إما أمامية أو خلفية أو جانبية أو في أكثر من جهة من الدار، بالحشيش والأشجار والشجيرات المثمرة والأزهار. الآن، لم يعد هناك ضوابط فيما يبدو، لأن البيوت تقترب من الشارع، بل إن بعضها يستمر في بناء الدار حتى الجدار الخارج، ثم يسرق من الرصيف مسافة داخلية ويبني الجدار الخارجي بعدها! ساعد هذا في أن تبدو الشوارع أضيق.

وما ساعد على هذا أكثر هو عدد البيوت، لأن الناس صارت تفرز مساحات صغيرة، أقلها مما يمكن فرزه وتسجيله قانونياً بواجهة 8 أمتار (ومساحة 200 متر مربع)، ولكن يمكن فرز أقل من هذا وكتابة "سند مشترك" بين المالكين، فصارت هناك بيوت بواجهة 5 أمتار بل وحتى 4 أمتار! ولأن هذه مساحات صغيرة، فإن أصحابها اضطروا

إلى تشييد 3 طوابق، فصار البيت يبدو وكأنه عمارة، مما ساعد على تضييق الشارع للمار أكثر فأكثر.

أكثر من هذا، ربما لاختلاف الأذواق عبر العقود، وربما بسبب صغر الدور، وربما للتنافس، وربما لهذه جميعها، معظم البيوت الصغيرة الحديثة تتمتع بتصاميم لا تنفع إلا لبيوت أكبر: أعمدة، زخارف، تغليف بالرخام والحجر والطابوق وحتى السقوف القرميدية (كالتي في أوروبا) مرة واحدة – يعني سمك لبن تمر هندي؛ هذا إضافة في بعضها إلى حفر كتابة البسملة أو الصلاة على محمد (ص) أو غير ذلك... هذا يجعل البيت، بل صف البيوت، تبرز بشكل وكأنها ستقع على رأسك وأنت تمر في الشارع.

*

البُيَيْت!

في السابق كان هناك بيت ومشتمل – البيت تحيط به الحدائق والطارمات، والمشتمل يمكن أن يلصق ببيت وأن يمتد في البناء إلى الرصيف، ولكن الجميع بتصاميم هادئة بسيطة؛ أما الآن فهناك البيت وهناك البُيَيْت – فمساحة بناء الأخير أكبر من مساحة المشتمل، بل الكثير منها بمساحة البيت لأن البناء يطبق على القطعة كلها، كما أن بعضها بثلاثة طوابق، فهو بُيَيْت في مساحة الأرض ولكنه أوسع من المشتمل.

*

بيتنا الذي تبخّر!

أنا الوحيد منّا نحن الثمانية ولدت في بيت أمي. فأختاي الكبريان ولدتا في الأعظمية، وأخواي الأكبر ولدا في بيت والدي في منطقة الصرّافية قرب الجسر الحديدي، ثم ولدت في بيت أمي في محلة نجيب باشا بعد أن بنته وانتقلوا إليه بعد فيضان دجلة سنة 1954، فولدت سنة 1955، وأجّروا بيت الصرافية والمشتمل في نفس الأرض، وبعد أن عاد والدي من اللجوء السياسي في سورية (حكم بالإعدام غيابياً سنة 1959، وعاد سن

1963) وكان قد تزوج من سورية في الشام بنى بيتاً واسعاً محل البيت والمشتمل، وفيه ولد أخي الأصغر وأختاي الصغيرتان، أي الثلاثة غير الأشقاء.

في بيتنا، بيت أمي، ليس فقط ولدت، ولكن نشأت وكبرت، ودرست في روضة الجمهورية ومدرسة الحريري الابتدائية في نفس المحلة محلة نجيب باشا، وبعدها المتوسطة والثانوية في كلية بغداد في الصليخ، ثم كلية الهندسة في باب المعظم، أي جميعها في قضاء الأعظمية، إما "شمرة عصا" من البيت أو على مسافة 5-10 دقيقة بالسيارة منه.

ثم تزوجت ابنة الجيران (سابع جار!)، البنت الصغرى للباحث والأديب الكبير عبد الرزاق الهلالي رحمه الله، وأقمنا في نفس البيت، بيت أمي، وولدت لي مريم، قبل أن نغادر سنة 1982.

إذاً، بيت أمي هو موطن الذكريات أو مركزها، وما اتصل به من مدارس وجامعة وجيران وملاعب وغير ذلك، يجعله أثيراً في نفسي إلى درجة كبيرة... ولكن، أين هو الآن؟ لقد تم هدمه، بعد أن انقسمت قطعة الأرض إلى قسمين، قسم لبيت أخي الكبير وشقق أولاده والقسم الثاني بيع لشخص آخر يقوم الآن ببناء بيت فيه.

بالكاد هناك بعض الذكريات في بيت أخي الكبير، والذي تغير هو الآخر.

هذا وإن مما ارتبط ببيتنا هو بيت الجيران المقابل، بيت عبد الله الفياض رحمه الله (1)، ونحن وإياهم وكأننا بيت واحد – توفي منهم من توفي والباقون في محلات أخرى أو خارج العراق... بيتهم بيع وصار ثلاثة بيوت!

*

جامع مصطفى العمري الذي "طمس"!

على شارع أبي طالب (ع)، مقابل نهاية الشارع خلف شارعنا (الذي كان اسمه يوماً ما شارع رفعت الحاج سري)، يقع مسجد صغير بناه المرحوم مصطفى العمري (لعله

رئيس الوزراء في العهد الملكي)، ربما يستوعب 300 مصل في الداخل، ويمكن أن يرتبط معهم صف من المصلين في الخارج مباشرة تحت الجزء المسقف من الخارج، وهو ما كان يحصل في صلاة الجمعة.

للمسجد منارة ليست عالية، وهي مزخرفة بشكل جميل. وكانت هناك غرفة لإمام وخطيب المسجد، ثم قامت وزارة الأوقاف ببناء بيوت في المساجد المختلفة من أجل أن يكون الإمام متواجداً في المسجد وبالتالي يقيم الصلوات الخمس إضافة إلى الجمعة والعيدين.

في السبعينيات كان الإمام هو المرحوم محمود الحاجم السامرائي، وكان يسكن بيتاً بالإيجار في محلة راغبة خاتون، ثم انتقل إلى البيت الذي بنته الأوقاف في المسجد.

كنا نذهب للصلاة يوم الجمعة، وأحياناً في العيد، وأحياناً لإحياء ليلة القدر.

كانت هناك بضعة محلات بسيطة (حلاق وبائع عصير وغيرهما) في الجزء المجاور للمسجد، إلا أن الذي حصل الآن هو نفس الذي ذكرته من قبل: متاجر بقطع أسماء كبيرة جداً، ملونة، عالية، بحيث أن منارة المسجد بالكاد تظهر للقادم من جهة باب المعظم، وتظهر بشكل أفضل، وإن كان أقل من السابق، للقادم من جهة الطريق السريع من الصليخ.

لم أزر المسجد، مع أنه كان سيكون لطيفاً لأن أماكن الذكريات لها أماكن في النفس، ولكن الوقت لم يسع، ربما. ولا أدري فيما إذا كان بحالة جيدة أم لا، ولكني وجدت له صورة على الانترنت من الداخل (حيث أقيمت صلاة مشتركة في أواخر سنة 2007 من أجل دعوة الذين غادروا المنطقة للعودة إليها بعد سنتي الطائفية المؤسفة)، وهي صورة لا تبين حالته في الخارج ولا الداخل. لم أسأل أخي عن ذلك، إذ إنه الآن يصلي في المسجد داخل المحلة الذي سأذكره الآن أدناه...

*

مسجد في حديقة عامة صغيرة... المساحات الخضراء تآكلت

يشكل المسجد موضعاً شريفاً عند المسلمين، وهو مكان إقامة إحدى أهم الفرائض، بل هي الفريضة التي لا تترك بحال من الأحوال: الصلاة. كما يمكن أن يؤدي المسجد دوراً في خدمة القرآن العزيز، وفي توفير الفتوى للناس، كما في خدمة الفقراء والمحتاجين. ولهذا سيكون من الصعب الحديث بشكل سلبي عن أي مسجد.

ولكني وجدت أن المسجد المقام في ما كان "حديقة أم الربيعين" (مدخلها في شارعنا وظهرها في الشارع الخامس من المحلة) يبدو غير متناسب في الحجم إلى البيوت، بل وحتى في الحديقة التي احتلها.

هذا إضافة إلى أن هذا المسجد يقيم صلوات الجمعة التي تقام في جامع الدهان المعروف في شارع الإمام الأعظم مقابل ثانوية الحريري للبنات، وهو لا يبعد عنه ربما 300-400 متر، وفي الجانب الآخر جامع العمري (أعلاه) الذي يبعد عنه ربما 300 متر، وهذا يعني – إن اتبعنا الفقه بحذافيره (هنا الفقه الحنفي الذي تتبعه هذه المساجد الثلاثة، وهو أن يكون بين أي مسجد والآخر مسافة لا تقل عن فرسخ، أي 4-6 كم) – أن صلاة الجمعة التي تبدأ أولاً ستجعل صلاة الجمعة في المسجدين الآخرين باطلة لاغية.

سألت أخي عن ذلك، فقال: نعم، بعد 2003، ولمدة سنتين، تم تطبيق الحكم الشرعي وصار الناس يذهبون إلى مسجد جامع واحد في المنطقة ثم عادوا إلى سيرتهم الأولى.

وفي مناسبة أخرى، أكد ذلك سائق تاكسي، حيث قال أنهم كانوا يذهبون إلى جامع النداء.

وهذا يعني أن صلاتي أيام الجمع في ذلك الزمان فيها مشكلة لأن المسافة بين جامع العمري وجامع الدهان مثلاً أقل من فرسخ!

هذه القضية، إضافة إلى ذهاب المساحة الخضراء للحديقة العامة والمحلة، أسوة بغيرها، في أشد الحاجة للمساحات الخضراء بعد زيادة عدد الوحدات السكنية وذهاب الحدائق الخاصة، أجده من التغييرات السلبية في المحلة.

*

كلية بغداد بجانبيها: العصيّ على التغيير والذي تغير نحو الأسوأ

"كلية بغداد" ليست فقط من ذكرياتي المهمة، ولكنها من معالم بغداد التعليمية المعروفة، كونها كانت تعد أفضل مدرسة متوسطة وثانوية للبنين في بغداد والعراق.

كانت قد تأسست أولاً في ثلاثينيات القرن العشرين، من قبل البعثات اليسوعية الأمريكية (التي أكثر ما تتخصص فيه هو إنشاء المدارس)، ربما لأولاد العوائل القادرة على دفع أجور الدراسة الخاصة ولكن من الذين لم يكونوا من المتفوقين بل من الفاشلين دراسياً. بعد ذلك تغيرت إلى جذب المتفوقين وغيرهم، ولكن صارت تقدم إلى الجامعات العراقية من خريجيها من هم الأعلى تفوقاً في العراق، لا ينافسها في هذا إلا بضع مدارس أهمها الإعدادية المركزية للبنين ومدرسة الراهبات للبنات والمدرسة الأمريكية (بغداد لاحقاً) للبنات، وبأعداد أقل من الآتين من كلية بغداد.

أعتقد أنه لا يوجد أحد ممن تخرج من كلية بغداد إلا وهي تشكل محطة مهمة في حياته، وذلك لعدة أسباب، منها جمال المدرسة بأبنيتها وملاعبها وحدائقها المنتشرة على مساحة كبيرة 27 ألف متر مربع، ومنها موقعها في منطقة الصليخ في الأعظمية، وهي منطقة جميلة كثيفة الخضرة والأشجار، بحيث كنا عندما نبدأ بدخول المنطقة (لا نزال في شارع عمر بن عبد العزيز، في آخره عند ملعب ساحة الشيوخ، قبل أن نصل إلى المدرسة بدقيقتين) نشعر بهبوط درجات الحرارة بحيث يصبح الجو ألطف.

ومنها المناهج الدراسية التي هي خليط من المنهاج الحكومي والمنهاج الخاص بها، والأخير، في مواد اللغة الانجليزية والرياضيات بأنواعها والعلوم بأنواعها، يستفيد من كتب دراسية باللغة الانجليزية لناشرين في الخارج تعتمدهم البعثات اليسوعية في لبنان أو

أمريكا، وأحياناً من وضع المدرسين الذين يدرسون في جامعة بغداد (كليتا العلوم والهندسة بالخصوص). كانت تلك المناهج أصعب، بدرجة أو أخرى من نظيراتها في المدارس الحكومية؛ كما أن الواجب البيتي كان أكثر مما هو المعتاد في المدارس الحكومية.

في أيام الأمريكان – الذين في السلك الديني وغيرهم – كان المدرسون، من عراقيين وأمريكان، معظمهم على درجة عالية من الكفاءة، وإذا كان الأمريكان متفرغين للتدريس فإن العراقيين كانوا ممن يدرسون في المدارس الممتازة في بغداد كالإعدادية المركزية أو في جامعة بغداد والتي كانت من أعلى الجامعات في الشرق الأوسط، إن لم تكن أعلاها.

إلا أن الأهم هو الجو العام للمدرسة، فقد كان جامعاً للطبيعة العراقية الجميلة في أشجارها ونخيلها ونباتاتها وأزهارها وبساطها الأخضر مع تصميم الأبنية وتأثيثها والتي تبدو مختلفة؛ والذي يجعلها أكثر حياة هو ذلك التفاعل مع المدرسين خارج أوقات الدروس، أثناء الحصص الدراسية وبعدها في النشاطات الرياضية اليومية (كرة القدم، كرة السلة، البيسبول (ألغيت عندما خرج الأمريكان)، التنس). ولا شك في أن عنصر اللغة الانجليزية في الدروس المشار إليها يضفي طابعاً خاصاً على المدرسة.

أخيراً، باصات المدرسة (لمن كان مشتركاً فيها، ولم أكن أحدهم ولكنني استخدمتها مراراً بعد تدريب كرة القدم، حيث كنت في منتخبات المدرسة، وكنت الهداف الأول في المتوسطة، كما عند الذهاب إلى ملعب الكشافة لمباريات بطولة المدارس)، ماركة شيفروليت، بلونها الأصفر، مطابقة تماماً لباصات المدارس الأمريكية كما تشاهدها في الأفلام السينمائية – هذه تضيف لمسة أخرى...

فما الذي تبقى من هذا، وما الذي انتهى؟

تجولت في المدرسة نحو 45 دقيقة، (إحتجت إلى الضغط على الأمن عند الباب كي يسمحوا بالدخول)، ثم دردشت مع سكرتيرة المدير ومع أمين المكتبة – اللذين صارا يطلبان مني معلومات عن زماننا القديم!

المباني لا تزال جيدة، بلحاظ غياب الصيانة فيما يبدو (الملح على بعض الطابوق في الخارج واضحاً) وبعض الكتابات السخيفة التي لا داعي لها. هذا ما عدا مبنى المطبخ وما حوله (الكانتين كما كنا نسميه)، فإنه في حالة تحتاج إلى الهدم وإعادة البناء. إلا أن الأبواب قديمة.

وأما الداخل، فقد دخلت إلى مبنى الإدارة فقط، ووجدته متعباً. وتذكرت كيف كانت إزارة الجدران مصبوغة بالدهان اللمّاع (بوية) بلون أخضر غامق، وكيف كان الفراشون يبدأون بالتنظيف بعد انتهاء الدوام بحيث عندما نأتي في اليوم التالي تكون كلها لمّاعة ونظيفة تماماً؛ تذكرتها عندما وجدت الإزارة صارت بدهان غير لماع، وأصفر (!)، وبالتالي فإن آثار أحذية الطلاب وأي أوساخ أخرى قد ملأت الجدران... تغيير لا داعي له، خطأ لا يرتكبه أحد.

مبنى الصف الأول المتوسط كان عبارة عن صف من الغرف تخرج من كل منها إلى الخارج مباشرة (أي ليست في مبنى)، والآن تم بناء فوقها، مع ممر خارجي بأقواس، وذلك لاستيعاب الصف الثاني المتوسط بعد نقله من مبنى الإدارة، الذي صار مخصصاً للإدارة والمكتبة والحسابات.

هناك مبنى آخر للمرافق الصحية ومرافق أخرى إلى جانب مبنى الصفين الرابع والخامس الثانوي، هذا مبنى جديد، ولكنه بتصميم وتنفيذ سيء جداً، يحتاج إلى الإزالة بكل تأكيد.

تم رفع شبكتي ملعب كرة السلة (بأعمدتهما طبعاً) من وسط الأبنية الأربعة، فبقي ملعبان فقط، هما اللذان بجانب الكانتين، واللذان تم فيهما تحديث، حيث رفع العمودان السابقان وتم بناء عمودين من الصبة الكونكريتية شكلهما أفضل.

أما الملاعب، فإن الملعب إلى يمين الداخل، الواقع بين بناية الإدارة والكنيسة، وكان فيه ملعب بيسبول (فزنا فيه بالبطولة ونحن في الصف الأول المتوسط)، فقد صار ساحة للاصطفاف اليومي، الأمر الذي لم يكن في زماننا، فلم يكن هناك اصطفاف، بل ندخل إلى

الصفوف مباشرة بعد الجرس الساعة 8 و25 دقيقة. بنوا هناك منصة نصف دائرة للمدير أو غيره عندما يتحدثون إلى الطلاب. وكان الملعب ممتداً إلى الكنيسة فلا يفصله عنها سوى صف من الأشجار قرب الكنيسة، ولكن الآن جاؤوا بصف الأشجار هذا إلى نحو منتصف الملعب. على الرغم من الاصطفاف اليومي، فإن الحشيش كان بحالة ممتازة.

كان هناك ملعب صغير محاذٍ للجدار الخارجي، ولكنه تحول مع مساحة أمامه إلى موقف للسيارات.

أما الملعب ما بعد الأبنية، مقابل الكانتين، والذي كان ملعب بيسبول ثم تحول إلى ملعب كرة قدم، فقد بني فوقه ملجأ، ما جعل المنظر الجميل الواسع من الأبنية إلى آخر المدرسة في نهايتها قرب راغبة خاتون ينقطع.

ملاعب كرة القدم الأربعة تحولت إلى ملعبين أصغر، وبالطول بدلاً من العرض، وبأهداف أصغر وغير مثبتة – لا أدري الحكمة من ذلك! وكان في آخرها قصب على ماء راكد (نزيزة)، لم أذهب إلى هناك، ولكن القصب والحشائش البرية صارت أقرب بكثير، فقد استغرقت مساحة الملعب الأخير الذي كان الأكبر من الجميع.

ما لم أفهمه هو إلغاء جميع ملاعب التنس الستة، وحلول ملعب كرة سلة مكانها...

بقيت المنشئات الكونكريتية الخمس لكرة اليد – وهي ليست كرة اليد المعتادة، ولكنها تشبه لعبة السكواش/الإسكواش، تمارس بكرة التنس بعد إزالة جلدها الأبيض، وكانت محبوبة للكثير من الطلاب خصوصاً الذين لا يمارسون اللعبات الأخرى. هذه بقيت، ولكن بدلاً من الكونكريت، تم صبغها بالأزرق والأبيض.

من المؤسف أن الحشيش حول الأبنية وفي الممرات ومقابل الكانتين وفي الملعبين الباقيين في حالة سيئة، الكثير منه غير موجود، والموجود ما بين أصفر وأخضر، وربما سيصبح أكثر اصفراراً في الأشهر الأخيرة من السنة الدراسية حيث الحر الشديد.

تحدثت مع بعض الطلاب، وسألتهم عن بعض المنشئات، فأخبروني مثلاً أن مختبري اللغة الانجليزية للصف الأول المتوسط صارا صفّين عاديين وأن المختبرين نقلا

إلى المبنى المقابل (مبنى الثالث المتوسط والسادس الثانوي). ووجدت الطلاب بعضهم يتحدث بلغة الشكوى، وكأنهم كانوا يعرفون حالة المدرسة في أيامنا ويقارنون مع أيامهم.

كانت إحدى الفرّاشات واقفة معهم، فسألتني إن كنت من زمان فلان (أحد مجرمي ذلك العهد الساقط)، فأجبتها: أرجو أن لا تأتيني بذكر أولئك... ولكنني أقدم منهم! الظاهر، وعلى الرغم من شكلي وحالة جسمي، لا أزال أبدو أصغر سناً!

أخبرني أمين المكتبة، وقد لحقني إذ رآني قرب الملاعب، أن الخلاف مع وزارة الداخلية بشأن الجزء الأخير من المدرسة (الملعبان آخرها) قد تم حله وأن عائدية تلك المساحة من الأرض أعيدت إلى كلية بغداد. إلا أنه قال أنهم سيقيمون فيها مبنى للنشاطات الكشفية، وبما أنني شخصياً، وقد كنت في الكشافة في الابتدائية، وفي الجوّالة في الثانوية في كلية بغداد، ولم أجد للكشافة نفعاً في شيء (!) فإني أتمنى لو يتم الاستفادة من الأرض إما بإعادتها إلى ملاعب كرة القدم، أو إنشاء مركز نشاط بيئي مثلاً.

ينبغي القول أنه بلحاظ ما مر به العراق فإن التغيير ليس مفاجئاً، بل هو أقل من غيره، وسيكون من السهل جداً أن تجرى صيانة على هذه المدرسة العريقة، كما تغيير في بعض الأبنية – من هدم وإنشاء –، والاهتمام بحالة البيئة الخضراء فيها، لتعود إلى ما كانت عليه أو ما يقرب من ذلك.

أخيراً، أضيفت قطع بإسم المدرسة فوق باب كل مبنى... لعل هذا يريد أن يؤكد أنها هي كلية بغداد على الرغم من التغييرات وصروف الزمان.

*

كيف فاجأت أخي الأكبر

كنت أريد مفاجأة أخي الأكبر المحامي صفوان نعمان ماهر (2)، فكتمت خبر سفرنا إلى العراق إلا عن أخت زوجتي التي ستستضيفنا في بيتها، وأخت ثانية؛ وأخبرت أختي الكبرى التي كانت في القاهرة وطلبت منها الكتمان عن الجميع.

في اليوم التالي لوصولنا بقينا في البيت حيث الطرقات مقطوعة لزيارة الإمام الكاظم (ع)، كما أن الراحة مناسبة بعد سفر متعب (الطائرة القطرية من لندن إلى الدوحة نحو ست ساعات، تمر فوق بغداد (!)، وفي الدوحة مرور/ترانزيت ساعة ونصف ثم ساعتان من الدوحة إلى بغداد)، وفي اليوم الذي يليه، زرنا إحدى أخوات زوجتي الكبريات، وتغدينا هناك، ثم ذهبنا إلى دار أخي (دارنا فيما مضى)، وهو في نفس الشارع وقريب من دارها.

فتح أخي الباب فوجد أمامه أختي زوجتي، فرحب بهما، ثم ظهرت له زوجتي التي كانت مختفية خلف النصف الثاني من الباب الخارجي، فرحب وضحك: ما هذه المفاجأة الحلوة؟ كانت زوجتي قد زارت بغداد في صيف 2019، إضافة إلى زيارات قبل ذلك بكثير، فحالها ليس كحالي في البعد المستمر.

قالت له: ولكن عندي مفاجأة أكبر!

ظهرت أمامه، فصعق، وصار ينظر بعينين مفتوحتين تماماً، وبين الضحك والمفاجأة – لم يصدق...

عانقني بقوة ظننت أن أضلاعي ربما تتأثر!

بكيت كثيراً، وبكى، فقد اجتمعت المشاعر المتنوعة، مع الحزن على طول الغياب... كانت لحظات لخصت واقع الغربة عن العراق كله...

قلت له: أتركني ودعني أنظر إليك!

كان بنفس الشكل، لم يتغير كثيراً، ولكنه أضعف وشعره قد شاب كله تقريباً... فقلت له: نوح عليه السلام!

احتضنني وأدخلني البيت، وجلسنا وكان الجو غريباً حقاً.

جاء ابنه الثاني حسن وتعرّفت به، حيث ولد بعد خروجي من العراق (شهرين أصغر من ابني جعفر). لم ألتق من قبل سوى بابنه الأول عمر (3).

خرج حسن إلى شقته، وإذا بأسامة ابن أختي (الذي كان في إجراء معاملات في بغداد، والذي كتمت أمه خبر زيارتي كما طلبت منها) أسمعه يقول: لا أصدق، لا يمكن، لا لا لا!

فهو معنا في انجلترا، ومن أقرب الناس نسباً ومحبةً، ولكن لم يكن في باله أنني أفكر بزيارة العراق.

مزيد من الأشخاص، خلال الساعات الأربع التي قضيتها عنده في ذلك اليوم، بعضهم إما كنت قد تحدثت معهم على الهاتف أو سمعت بهم وحسب (4).

جمع اللقاء بين الإلفة بأخي وفي ذلك الجزء من بيتنا السابق الذي أعرفه، وبين الغربة عن الآخرين، وإن كانوا جميعهم ممن يحملون لي الحب والاحترام الذي لأخي وباقي إخوتي لي. كانوا سعداء بي لأنهم كانوا يريدون اللقاء بي، وخصوصاً كانت تؤملهم زوجتي عندما التقتهم قبل سنوات في بغداد.

*

الكرخ والرصافة في زيارة بالكوستر!

أخبروني أن جانب الكرخ أحسن حالاً في شوارعه من جانب الرصافة، وقد صدقوا. فعندما ذهبنا في زيارة لبعض مناطق بغداد تبين أن الرصافة – من الأعظمية وحتى الكرادة – شوارعها وأرصفتها وأبنيتها مهملة لا صيانة مرت عليها منذ زمان كما يبدو.

كانت رحلة لطيفة بكوستر (سيارة تسع أكثر من 12 شخصاً)، مع أخي الأكبر صفوان وإبنه حسن وأسامة ابن أختي – كان حسن هو الدليل، يجلس إلى جانب السائق بلال، فسمّيت حسن "السِّكِن" (كما كنا نقول لمساعد السائق = سَكِنْد أي الثاني بالانجليزية!)

من محلتنا نجيب باشا، شارع أبي طالب حتى باب المعظم، وعندما وصلت إلى كلية الهندسة التي درست فيها 4 سنوات في السبعينيات، صرت أخبرهم بالذي سيظهر منها.

البناية الرئيسة بناية العمادة وقسمنا، قسم الكهرباء، عليها قطعة "كلية التمريض"، وقد أخبروني أن هذا النصف من المباني لها، والنصف الآخر أو أكثر لكلية الهندسة جامعة المستنصرية. هذا المبنى بدا أفضل حالاً من مبنى "المدني القديم" حيث درسنا فيه الصف الثاني كهرباء، المحاذي لملعب كرة السلة، وهو مبنى من طابقين، أبيض اللون، بدا شاحباً والخطوط البنية (من المطر بعد التراب على السطح) بادية من بعيد ما يعني أن الصيانة (في هذه الحالة صبغ فقط) غير موجودة.

شارع الجمهورية في حالة سيئة، ثم دخلنا شارع الرشيد، وسرنا مسافة فيه، والجميع يعرفون حالته السيئة، فقد كان بحاجة إلى الصيانة منذ السبعينيات، فما بالك الآن وبالإهمال التام. (علّق أخي أن الجماعة يهملونه لأن عندهم مشكلة مع هارون الرشيد العباسي! ولكن الإهمال بدأ منذ أيام الذين يحبون هارون العباسي؟!)

ساحة التحرير لا بأس بها، ونصب الحرية وما تحته وخلفه حديقة الأمة بحالة جيدة وقد زرعت فيها شجيرات ونباتات.

أما شارع السعدون فكان جانباه بحالة غير جيدة، نفس الإهمال، وإن كانت بعض المحلات حديثة مما يجعل الشارع يبدو وكأنه خليط من ماضي وحاضر. لم أتبين السينمات التي كانت على جانبيه.

ساحة الجندي المجهول القديم لا بأس بها، ثم البتاويين. لم ندخل في الكرادة التي قيل لي أنها بحالة أفضل، ولكن عندما سرنا إلى حيث المسبح ودخلنا شارع المسبح الرئيس تغير الحال إلى ما هو أفضل بشكل واضح.

ساعد عرض الشارع والأرصفة العريضة على بقائه عريضاً (أي على الرغم من المحلات الكثيرة ذات القطع الكبيرة إياها). كما كان جميلاً رؤية الشجيرات على الجانبين، كما في الرصيف (الجزرة) الوسطي. وربما لأن الغروب قد حل فإن مكامن الضعف في الشارع لا تظهر، والإضاءة تجعله يبدو بشكل أفضل.

عبرنا إلى الكرخ، وبالفعل كانت الشوارع أفضل، والأرصفة بحالة جيدة، مثلاً شارع "الأربع شوارع" جميل والشجيرات على الجانبين وقد رصف الجانبان، بشارعي كل منهما (أي الرئيس وشارع الخدمة إلى جانب المتاجر والمطاعم)، بشكل جيد.

نزلنا في شارع رئيس لا أتذكره، وكله مطاعم ومتاجر على الجانبين، ودخلنا في مطعم "ورق ذهب" وهو مطعم جديد تماماً، وكان بتصميم جميل ومضيء، والخدمة جيدة ومريحة، والطعام كان بين الممتاز والوسط (حسب الآراء المختلفة للأطباق المختلفة). وكانت إحدى الطاولات يشغلها بعض الشباب، وإذا بالنادلين يأتون بكعكة عيد ميلاد أحد الشباب، وصاروا يصفقون ويغنون له – جو لطيف.

في طريق العودة مررنا إلى جانب حديقة الزوراء، وقبالتها مجمع "بوابة العراق" مجمع عمارات سكنية يعتبرونه الأفضل في بغداد.

وقبل أن يخبرني حسن، رفعت صوتي: ذاك جامع بيت بُنِّيّة! عرفته من القبة الصغيرة... كنت سعيداً أنني تعرفت على معلم ما، وطبعاً على المحطة العالمية للقطار والتي لا تزال كما هي عصية على الزمان.

*

مبنى المدني القديم "يخرّ" من الخارج

مبنى "المدني القديم" تسمية لمبنى مكعب بطابقين مجاور لملعب كرة السلة في كلية الهندسة، مقابل جانب البناية الرئيسة (العمادة وقسم الكهرباء)، واسمه "المدني القديم" أطلق بعد أن تم بناء قسم الهندسة المدنية الجديد (وقسم الري والبزل، والدراسات العليا، والمكتبة – مجموعها أربع بنايات إنشئت في القسم الخلفي من الكلية)

درسنا في هذا المبنى طيلة الصف الثاني (لأن قسم الكهرباء الأصلي لم يعد يكفي، فدرسنا فيه بعد ذلك في الصفين الثالث والرابع)، وكان المبنى بلون أبيض مميز عن البناية الرئيسة التي تغليفها بالطابوق.

عندما مررنا بالكوستر ببناية الكلية ساءني أن أجد المبنى وقد صار لونه متربأً، وأثر ماء المطر الذي ينزل دون تصريف على جانب المبنى، بلون الطين. واضح أن الصيانة لم تجد طريقها إلى هذا المبنى منذ سنين طويلة.

مرة أخرى، مع أن مثل هكذا صيانة لا تكلف الكثير لا من المال ولا من الجهد ولا من الوقت.

*

يوم أحد زكريا في بيت أخي

كان أول أحد من شهر شعبان مناسبة لاحتفال زكريا، وهو احتفال اجتماعي وحسب (لأنه لا يوجد شيء في الإسلام إسمه يوم زكريا مثلاً)، وكان الكثير من أهالي الأعظمية يحتفلون فيه، وهذا ضمن الذاكرة التاريخية لي منذ الصغر، حيث كنت أحب الشموع المثبتة في صينية زكريا بالعجين والأباريق (التُّنَك جمع تُنكة) وفيها الآس، وطبعاً "اللُّهوم" وغيره من الحلويات، وطبعاً أطباق الزردة.

دعى أخي بعض الأقرباء، ودعى رياض الجابي أحد الأصدقاء الأحبة جداً (5)، وطبعاً أولاد أخي والأحفاد...

المهم كان أخي الثاني يقظان (6)، والذي كان يعلم بقدومي حيث حادثته هاتفياً عندما زرت أخي الأكبر أولاً (ولكنه أراد التخلص من الانفلونزا قبل لقائي تجنباً للعدوى). طبعاً اللقاء كان حارّاً، بالعناق والبكاء، وقد تغيرنا جميعاً: فأنا في حال ظهري المحدب نتيجة المرض، وهو يبدو أكبر سنّاً عن آخر صورة له جاءتني قبل بضع سنوات. ولكنه كان كما هو في روحيته وقوته وكلامه.

ذكرته والحاضرين ببعض لقطات الماضي (7)، ولا أظنه تذكرها!

إلتقطنا العديد من الصور، وكانت إحداها لنا نحن الثلاثة استخدمتها نور ابنة أخي صفوان في عمل سجادة صغيرة أنزلت عليها صورتنا في ذلك اليوم يوم زكريا، وخلفها

صورة لنا نحن الثلاثة قبل عشرات السنين، إلتقطها لنا الدكتور علي كمال رحمه الله (كان أشهر طبيب نفساني في العراق) في حديقة داره، وجعلت هذه الصورة من الماضي أخف ألواناً... علّق يقظان: ليش صورة الشباب في الخلف وأخف، وصورة الشياب في الأمام و"طُوخ"؟!

*

بيوت الإخوة والأصهار بين الغربة والإلفة

بعيداً عن الشوارع والجسور والمحلات، داخل البيوت من شأنه أن يجعلك تشعر بغربة أقل، وهذا حصل، ولكن جزئياً...

من أسباب ذلك – فيما أحسب – هو أن البيوت نفسها قد تغيرت، بعضها نشأ إلى جانب البيت الأصلي، والبيت الأصلي أزيل تماماً، فتجد ذكريات البيوت الأصلية وأهلها وكأنها ارتفعت إلى السماء مع الجيل الذي رحل رحمهم الله جميعاً. كما أن بعضها صار وكأنه مجمع شقق – وهكذا.

ومن أسباب ذلك أنك تبقى تشعر أن هذا البيت أو ذاك في محلة تغيرت، وبعضها في محلات جديدة تماماً.

حتى الأجهزة الكهربائية الحديثة، والتي هي عندنا في الاغتراب، تبدو وكأنها غريبة بعض الشيء، لأنها وكأنها دخلت فجأة في البيوت والغرف التي لم تكن تحتوي مثيلاتها قبل عقود.

ومن الأسباب المحتملة هو وجود أفراد من الجيل التالي الذي لم نعاصر ولادتهم أو عاصرناها وغادرنا وهم أطفال والآن قد صاروا كباراً هم أنفسهم لهم عوائل وأولاد.

فهناك إلفة وقد امتزجت بالغربة.

ولكن الفرح بلقاء الذين نعرفهم كبيراً، وخصوصاً علي، أخ زوجتي (8). خرج إلي مع زوجته وولديه الأوسطين وابنته، عانقته وأجهشت بالبكاء حيث شعرت أنني أحتضن

الماضي الجميل. ولأنه يسكن في بيته الذي بناه في جانب من أرض بيتهم الأصلي، فإن التواصل مع الماضي لم ينفك عنده، مما ساعدني على التمسك بالخيوط الباقية.

أمامهم بيت السيدة انتصار الهلالي أخت زوجتي (9)، وزوجها الأستاذ محسن الشيخ راضي (10).

كان د. محسن يلح علي للقدوم وزيارة العراق، ويشجعني أن الأوضاع الأمنية جيدة في منطقتنا، وكنت أوجل وأوجل... ولا غرابة، فإننا نتبادل المحبة الصادقة والاحترام الشديد، وإن كان هو الذي يغمرني بأنواع من الثناء والمديح مما لا أحسن مجاراته به مطلقاً! كان فرحه شديداً، ويقول: الحمد لله قدمت إلى العراق – وصلت إلى الظن أننا ربما لن نراك هنا...

ومن اللقاءات العائلية، زيارة من السيدة سلامة الهلالي، إحدى أخوات زوجتي الكبريات، وزوجها السيد واثق المتولي (11). بعدها دعوانا في بيتهما، وكانت الدردشة مع الأخ واثق لطيفة ومفيدة، حيث سألته عن الأوضاع الحالية، فوجدته من الذين يقيّمون الأوضاع بشكل منطقي مع التفاؤل بقدرة العراقيين على النهوض والتقدم.

وكنت سعيداً بلقاء ابنة عمي إنتصار في يوم احتفال زكريا في بيت أخي. شخصية عزيزة عليّ، والوحيدة من بين الأقرباء من نتواصل على شبكة التواصل الاجتماعي فيسبوك (12).

*

زيارة من ثلاثة أجيال!

السيدة نضال الهلالي هي الأخت الكبرى لزوجتي (13)، بعد يومين فقط من وصولنا، زارتنا – على ما في ذلك من مشقة بالنسبة لوضعها الصحي – مع اثنتين من بناتها، ومع إحدى حفيداتها... عرفت البنتين قبل مغادرة العراق، الأولى وكانت في الابتدائية والثانية وكانت في بداية عمر الطفولة...

هذا الاجتماع، في غرفة واحدة، مع ثلاثة أجيال، ربما يلخص علاقتي الاغترابية بالأهل والأقرباء والأحبة: جيل عاصرته وأعرفه جيداً وبقي التواصل لأننا من جيل واحد أو متقاربين، وجيل تالي عاصرته وأنا أكبر منه كثيراً وكان معه تواصل بسيط متباعد، وجيل ثالث لم أعاصره ولا أعرفه... أتصور أن هذا هو حال العراقيين المغتربين، بل جميع المغتربين، ولا سيما الذين انقطعوا عن الوطن وأهله زماناً طويلاً...

*

مقهى في شارع الضباط

إقترحت مضيفتنا (أخت زوجتي) أن نذهب إلى شارع الضباط (شارع شهير في الأعظمية) والجلوس في مقهى لقضاء بعض الوقت. ذهبنا، وجاءنا إلى هناك إبن أختي (يقطن في لندن، في زيارة إلى بغداد) وأخي الأكبر.

جلسنا في مقهى حديث، نظيف، تصميمه جميل، زجاج من جانبين وبالتالي مضيء، الأثاث جميل، والجو لطيف.

ما طلبناه مما يقدمه كان كله جيداً جداً.

شارع الضباط كان في السابق أكثره من الدور السكنية، ولكن فيه محلات أيضاً، أما اليوم فهو محلات من البداية إلى النهاية "إلى كطْع النفس"! من الخارج تبدو المحلات جيدة جميلة نظيفة، ولكن طبعاً بقطع الأسماء الكبيرة أكثر من اللازم.

مما سمعنا أن المقاهي الحديثة صارت منتشرة في مناطق مختلفة من بغداد.

*

النّصّة: سمك الجّرّي مع التمن الأحمر!

كانت أمي رحمها الله تقول، وكأنها حكاية عن العقيدة الشيعية في الطعام التي تحرّم سمك الجّرّي: "إلياكُل الجرِّي من علي مِتبَرّي، والياكُل البُنّي إيروح العَلي يغنّي"!

الجزء الأول معروف، أما الثاني فلم أسمعه إلا منها!

لم نعرف الجرّي يوماً، فأمنا – السّنّيّة على مذهب أبي حنيفة النعمان – لم تشتره يوماً، بل ولم أعرف أحداً من الأقرباء أو الجيران من اشتراه.

الذي وجدته مضحكاً هو أننا في ثاني خرجة لنا، وكانت إلى زيارة الكاظمين (عليهما السلام)، في طريق العودة، بعد الأعلام وصور الأئمة (ع) والشعارات الدينية، والتي منها ما هو على جسر الأئمة نفسه، بمجرد أن نزلنا وانعطفنا في أول فرع على اليسار، حيث محلة النّصّة (لأنها أوطأ (أنصه بالعامية) مما يحيط بها) والتي فيها سوق الخضروات ومحل حلويات نعّوش الشهير (والذي تغير هو الآخر)، أول ما دخلنا الفرع الضيق وإذا به مطعم يبيع "سمك الجري"! وإلى جانبه "سمك جرّي مع التمن الأحمر"! وثالث أيضاً.

قلت لهم: بخصوص الجّريّ، من الكاظمية إلى النّصّة لا توجد منطقة محايدة!

*

والنّصّة أيضاً

الشيء بالشيء يذكر، أن فروع النّصّة فيها العديد من البيوت القديمة التي لو كانت في أوروبا لقاموا بصيانتها وفتحوها كمتاحف صغيرة، فإن جدرانها الخارجية وشبابيكها وأبوابها فيها من التصاميم والزخرفة ومواد البناء ما قبل 100 سنة مما يحسن الحفاظ عليها، إضافة إلى كونها جميلة في تفاصيلها...

ولكن هذه الحالة، حالة إهمال هذا التراث، تجدها في جميع أنحاء بغداد، وشارع الرشيد المثال الصارخ...

*

الكريعات وقد ودّعت معظم مشاتلها

في بداية 1982، قبيل مغادرتي العراق بنحو 3 أشهر، إتفقت مع والدي رحمه الله أن أقوم بتأسيس بستان صغير (يسمونه في سامراء بُقجة)، وذلك في الأرض التي تحيط

بمزرعته وبستانه في منطقة مُعيجِل نحو 8 كم جنوب سامراء، مطلة على نهر دجلة. بالفعل، قمت بتهيئة الأرض بتعديلها بالمكائن المتخصصة وتنظيفها، وأخذني أخي الأكبر المحامي صفوان إلى الكريعات وزرنا مشتلاً أو أكثر وحصلنا على أسعار شتلات أشجار التفاح والرمان والبرتقال.

إلا أن قراري مغادرة العراق لم يتمم المشروع، حاله حال مشروع آخر وهو فتح مكتب هندسي للخدمات (التصاميم الكهربائية والميكانيكية) مع مهندس ميكانيك، سبقني هو إلى المغادرة على أية حال.

وكنت منذ ما قبل ذلك ببضع سنوات أقوم بزيارة عمي السيد عبد القادر ماهر رحمه الله (أخي والدي الأصغر) كل مساء خميس تقريباً، عندما كان في شارع عمر بن عبد العزيز في الصليخ، ومن ثم عندما اشترى بيتاً في الكريعات في أحد الشوارع الجديدة وقتها.

كانت المنطقة لا تزال معظمها مشاتل ومساحات خضراء، في المساحة الواقعة على الجانب الآخر من الشارع الرئيس الآتي من الأعظمية، والجانب الآخر هو نهر دجلة. أما الآن، فقد تقلصت المشاتل إلى درجة كبيرة جداً، لعل معظمها تحول إلى شوارع سكنية... وتجد البقايا في داخل المناطق السكنية، كما في الحديقة الصغيرة التي خلف دار أخت زوجتي الذي نزلنا فيه، والتي لا يزال فيها إنتاج زراعي وإن كان قليلاً.

صحيح أن الحاجة إلى السكن تضاعفت ربما 3-4 مرات منذ نهاية السبعينيات (كان سكان العراق في إحصاء 77 نحو 13 مليوناً والآن نحو 45 مليوناً)، ولكن هذا التقلص الكبير في المساحات الخضراء والأشجار خطير على البيئة والصحة، ما له أبعد الآثار على القوة الإنتاجية للفرد.

*

فجأة على كورنيش الصليخ!

في التاكسي، وإذا بي أقرأ قطعة في وسط ساحة (فِلْكة) فيها نعي لفلان عمّاش (نسيت الاسم الأول)، فقلت: من هذا؟

أجابني السائق أنه أخو صالح مهدي عماش (الضابط والقيادي البعثي سنة 1963 ثم في بداية 1968 قبل أن يبعده اللعين صدام مع من أبعد من القيادات جميعها)، فبيت أخيه هنا.

قلت: إذاً نحن في "ساحة الطبقجلي"؟!

أجاب بالإيجاب.

قلت: ما هذا؟ إذاً هنا بيت زميلنا وصديقنا القديم علي العلي (إبن د. داوود سلمان العلي و د. سعاد خليل إسماعيل – والأول على دورتنا، الثاني على العراق في بكالوريا 1973)! معنى هذا أننا على كورنيش الصليخ، وهناك ننزل في الشارع إلى مدرستنا كلية بغداد – أليس كذلك؟!

ثم ذكرت كيف كنا نمشي من المدرسة إلى هذا الكورنيش لننتظر باص مصلحة نقل الركاب، وربما نقف في قطعة أرض غير مبنية (ملك رجل الأعمال وصاحب مطبعة يحيى ثنيّان) لنرمي الحصى في النهر! بجانب دار د. آمنة صبري مراد، ثم دار د. كمال السامرائي، ثم آخر السلسلة دار الشيخ بلاسم الياسين (من شيوخ عشيرة المياحي، ربيعة)... ومقابل هذا بيت رشيد عالي الكيلاني رئيس الوزراء في حكومة ثورة مايس 1941 (والذي صار فيما بعد الجمعية البغدادية، وهي ناد اجتماعي).

معالم متغيرة، والمفاجأة بالمكان تؤكد الغربة وما فعلته...

*

وفجأة في شارع أبي طالب!

في مناسبة أخرى، ونحن في منطقة باب المعظم، وأثناء سيرنا في شارع رئيس مزدحم سألت السائق: أين نحن؟

أجاب: في الوزيرية.

قلت: أين في الوزيرية؟ هل نحن في شارع أبي طالب؟

أجاب بالإيجاب.

قلت: هذا يعني أننا عبرنا للتو كلية الهندسة، ولم أنتبه!

فعلاً، سرنا حتى وصلنا إلى ما كان من كلية التربية الرياضية وبعدها مصلح السيارات خيري، ومحل الأنابيب والمواد الصحية وصاحبه أحمد صالح (كان من نجوم فريقنا شباب المعتصم لكرة القدم، كنا نشارك فيه في بطولات الفرق الشعبية التي ينظمها إتحاد الكرة العراقي)، ومقابله محل لبن أربيل وصاحبه كاكا محمود، ثم محل بيع الدوندرمة، ثم مطعم الوزيرية – ومع كل منها هناك ذكريات كثيرة.

بعد ذلك جاء شارع المغرب، وإلى محلتنا القديمة.

*

وفجأة في شارع 14 رمضان!

صحيح لا أعرف الكرخ كما الرصافة، ولكن شارع 14 رمضان أعرفه جيداً فقد كان أحد الشارعين الرئيسين في منطقة المنصور (الشارع الآخر هو شارع الريسِز، أي سباق الخيل، حيث كان في جزء كبير منه مضمار سباق الخيل، وثم يمتد إلى معرض بغداد الدولي وغيره من المعالم الخدمية من مستشفيات وأسواق).

ونحن ذاهبون إلى دعوة أخي يقظان، وجدتنا نسير في شارع كبير كله متاجر ومطاعم متنوعة، فسألت عنه..

قالوا: إنه شارع 14 رمضان!

لم أكن أتوقع هذا، لأن الإحساس بجغرافية المناطق كان غائباً تماماً، إضافة إلى التغيير في معالم الشوارع حتى الرئيسة، لأن الذاكرة كانت راسخة، والدليل عليها بعض المناطق أو المنعطفات أو تقاطعات شوارع أو ساحات عرفتها مباشرة أو بعد المرور فيها بثوان.

*

زيارة الكاظمية

في السنوات الأخيرة قبل مغادرتي العراق، وكنت أتعرف على موقعية أهل البيت (ع)، كنت أحياناً أشعر بالجذب نحو الكاظمين (ع)، فأتوجه بالسيارة في الاتجاه المعاكس لوجهتي باتجاه المكتب الهندسي الذي كنت أعمل فيه (مكتب هشام منير، وكان المكتب الأول في حجم الأعمال) في منطقة البتاويين-الكرادة، فبدلاً من التوجه من منطقتنا إلى شارع الجمهورية مباشرة، أو إلى شارع فلسطين ثم أدخل عند ملعب الشعب، أذهب إلى شارع الإمام الأعظم، فساحة عنتر، باتجاه جامع أبي حنيفة. وحالما تصبح السيارة في أعلى جسر الأئمة وتظهر قبتا الإمامين الكاظمين الجوادين (ع) إلا وأشعر براحة ممتزجة بالدموع في المآقي، وربما نزلت على الخدين...

أدخل الصحن الشريف، فالمرقدين، أدعو، أجلس، أحياناً يكون الوقت وقت صلاة... هذا وقتها، فما بالك بالشوق إليهما (ع) بعد أن عرفتهما كما يعرفهما أتباعهما (وإن كان أقل مما يجب).

كانت زيارة الكاظمين (ع) واحدة من أهم أهداف زيارتي إلى العراق، فهي تجمع بين العلاقة بهم كأئمة من العترة الطاهرة وتلك الذكريات والمكان حيث أن الكاظمية جزء من مدينتنا بغداد وبالقرب من منطقتنا الأعظمية.

الحمد لله، بعد ثلاثة أيام من الوصول، يوم أحد (حسبما نصحنا الأخ الصديق المرافق هناك، كون العطلة الأسبوعية تكون أثناءها المراقد مزدحمة) ذهبنا إلى هناك، وكانت المسافة بين موقف السيارات والمرقد الشريف بالنسبة لي طويلة (خصوصاً مع ألم في قدمي)، ولكن لم يكن يهم، بل قل لم يكن في البال وأنا أتقدم نحو صفوة الناس من آل سيد المرسلين (ص).

كانت المشاعر متنوعة، بين الشوق والترقّب والتحكّم بالعواطف، ريثما ندخل والتفتيش ثم إيداع الأحذية عند الكيشوانية... هذه المشاعر لم تكن لتعرف غير إرهاصات البكاء ونحن نسير في الداخل، ثم لتصبح بكاءً شديداً عندما وضعت رأسي على شباك الإمام

الكاظم (ع)... أنظر في داخل الشباك، أزوره (ع) بكلماتي أنا وليس بأية زيارة مأثورة، أدعو، أحمد الله على هذه النعمة، لا أدري...

نفس الحال مع حفيده أبي جعفر الجواد (ع)، والذي ربما له وقع يختلف عند المؤمنين، حيث صغر السن ربما، في إمامته وفي وفاته... الحمد لله في كل خطوة على التوفيق لزيارته (ع)، ومزيد من البكاء الذي يهز البدن وأنا أمسك بشباكه وأسند رأسي إليه...

بعد ذلك، بحثنا عن منضدات الصلاة (لمن يصلون جالسين مثلي)، وأدينا صلاتي الظهر والعصر. ثم طلبت من الأخ أن يأتيني بكتاب الدعاء الذي يبدو في مكتبة في جانب آخر. جاءني بكتاب خاص بزيارتهما (ع) – فزرتهما (ع) بالمأثور.

بخلاف ما سنجده في المراقد الأخرى، كان التصوير ممنوعاً، فالتقطنا بعض الصور في الشارع، بعد أن اجتمعنا مرة أخرى مع زوجتي وأختها...

كنت سعيداً جداً ونحن في طريق العودة، فقد بدأت تتحقق أهم أهداف الزيارة، بل قل أهم أمنياتي.

*

زيارة كربلاء – العباس بن علي (ع)

من بغداد حجزنا الفندق في النجف، وذهبنا باتجاه كربلاء أولاً، ووصلنا المرقدين. هناك مسافة ليست قصيرة سيراً من موقف السيارات، ووصلنا إلى مرقد العباس بن أمير المؤمنين (ع)، وكما ساعدني صديقي – عند الكاظمين (ع) – في فتح الطريق إلى الشباك ثم توفير زاوية لي كي أصل إلى الشباك وأبقى إلى أن أنتهي (طبعاً مع اضطراري إلى ترك المكان بعد دقائق من أجل فسح المجال أمام الآخرين)، فقد ساعدني هنا أيضاً.

كانت صلاة الجماعة تقام، فجلست وصليت الظهرين في أحد المواضع الصغيرة المطلة على الممر المحاذي للمساحة الوسطية الكبيرة للصلاة، والتقطنا بعض الصور.

المرقد جميل جداً بالزخارف والإضاءة، ولا سيما السقوف، وهي تجمع بين استحباب الاهتمام بهذه الرحاب المشرفة من أجل إبقاء تميزها عن غيرها لجهة تميز المدفونين فيها، ومن هذا التوسعات لاستيعاب الأعداد المتزايدة أبداً للزوار من داخل العراق وخارجه، والفارق بين هذه والبيوت البسيطة جداً التي كان يحياها أولئك الأفذاذ (ع)... على أن لكل زمان طابع من العمارة التي لها دلالات متعددة حول المكان والمكين.

العباس (ع) حالة خاصة، فهو ليس من الأئمة المعصومين (ع)، ولكنه وصل إلى المرتبة العالية المتميزة لأنه كان صاحب لواء أخيه الحسين (ع) يوم عاشوراء، ما يعني وزير القائد العام لذلك الجيش الصغير في حجمه الكبير في عطائه وفي عطره المنشور أبد الدهر؛ هذا إضافة إلى ما نقل من مواقفه يومذاك. فأنت تقف إزاء رجل كان طوع بنان سيده وإمامه وأخيه سيد الشهداء (ع) – وخير وصف له هو الذي في الزيارات: ((العبد الصالح المطيع لله ورسوله)).

سلام الله عليه.

*

زيارة كربلاء – الإمام الحسين (ع)

مسافة كنت – من الصور – أظنها بعيدة بين المرقدين، ولكنني لم أشعر بها، لا أدري هل للهفة للوصول إلى سيد الشهداء (ع) أم للمرور بين آلاف الزوار – من عراقيين وإيرانيين وباكستانيين وهنود وربما من جنسيات أخرى – أم أن الدفعات الروحية لتلك الرحاب الطاهرة تعطي جرعات من القوة إلى الأبدان المتعبة...

الدموع تبدأ بالتجمع ونحن في الداخل ولكن لا نزال نحاول المرور إما من خلال عموم الناس، وإما أحياناً مع صف الكراسي المتحركة للمرضى أو المعاقين أو العجائز (بعضهم مثلي يستخدم العصا ولكنه يفضل الكرسي من أجل قطع المسافات)، والموظفون يحثونك على السير، ولكن بالكلمات الطيبة والتشجيع والدعاء – الأمر الذي تجده في كل مكان ذهبت إليه، سواء المراقد أو غيرها – هذه الروح العراقية الأخوية الطيبة، التي لم تستطع

لا الحكومات المجرمة ولا الفاسدون وأعداء الأمة ولا ما نزل على رؤوس المواطنين طيلة نصف قرن من المصائب والكوارث والمآسي والخيانات والجنايات والمؤامرات، هذه الروح تجعلك تحنّ إليهم، وتتألم لأنك فارقتهم، وتسعد لأنك ترى الأمل الكبير بالمستقبل الأفضل أمامهم... أتذكر قول المرحوم خالي ضياء عبد الوهاب: "نحن أحسن منهم كلّهم" (أقول هذا لأنني أسمع البعض يردد "إحنه مو خوش ناس"!)

وأنا واقف عند الشباك، أمسك بالشباك، ورأسي مسند إليه، أزوره بالمأثور مما أحفظ، وأخطئ أحياناً وأكرر أحياناً أخرى، وكيف لا والبكاء يفعل فعله، والمشاعر العجيبة – أحقاً أنا واقف عند هذا العلم المتفرد؟ أحقاً أنا واقف عند شهيد كربلاء؟ أحقاً أنا هنا؟

وأنا واقف أدعو وأحمد الله تعالى على أن حقق لي تلك الأمنية التي بقيت تغالب السنين، وإذا بأبيات السيد مصطفى جمال الدين تصدح في رأسي، مخاطباً سيد الشهداء (ع):

أنتَ الذي أعطيتَ ما أعيا الورى * تقديمه ووهبتَ ما لا يُوهَبُ

ورسمتَ للأجيال حين يلِزُّها * عَنَتُ السّرى ويضيق منها المهربُ

جُثثُ الضحايا من ذويك تُريهِمُ * أنّ الحقوق بمثل ذلك تُطلبُ

ودماً أرقتَ كأنه من جِدّةٍ * للآن يعطرُ في الثرى ويُخَضِّبُ

(من قصيدته الذائعة ومطلعها:

ذكراكَ تنطفئُ السنينُ وتغرُبُ * ولها على كفِّ الخلودِ تَلَهُّبُ)

تركته وأنا أقول إن هذه ليست إلا لقمة للتذوق وليس للشبع، فإن الحاجة في النفس إلى الزيارة كل يوم والبقاء طويلاً... فعسى أن يحقق الله تعالى ذلك قريباً.

*

زيارة النجف

ظامِئَ الشعر، ها هُنا يولدُ الشعر ** وتنمو نُسورُهُ وتطيرُ

ها هُنا تنشرُ البلاغةُ فرعَيها ** فتستاقُ من شَذاها الدهورُ

هَدَرَتْ حولهُ بكُوفانَ يوماً ** ثم قرّت، وما يزالُ الهديرُ

وسيبقى يهُزُّ سمعَ الليالي ** منبرٌ من بيانِهِ مسحورُ

(رحم الله السيد مصطفى جمال الدين صاحب الأبيات في غديريته الرائعة، ومطلعها:

ظَمِئَ الشعرُ أم جفاكَ الشُّعُورُ ** كيف يظمأُ من فيهِ يجري الغديرُ.)

عندما كنت أفكر بزيارة العراق كان أول ما يتمثل في خاطري هو أمير المؤمنين (ع)، فهذا العبد الصالح، إمام الهدى، وعلم التقى، يهزّني هزّاً، إذ لا تدري كيف تهفو إليه النفس، بل كيف لا تهفو إليه! ألتلك المواقف، أم ذلك التاريخ المتفرّد، أم ذلك البيان الساحر، أم تلك الأخلاق السامية، أم ذلك العقل الكبير، أم ذلك القلب الكبير والنفس العالية؟

عندما زرت أولاده الكاظم والجواد ثم الحسين والعباس (ع) كنت أحمد الله على ذلك وفي نفسي القلق والترقب والأمل نحو زيارة الإمام علي (ع)، فعلى عظمتهم ومنزلتهم في القلب والعقل إنما هم فروع من الدوحة العلوية، ومواقفهم الخالدة أغصان من مواقف علي (ع)، وأخلاقهم وسمو نفوسهم وفي صبرها وعفوها وكرمها وعطائها وجميع ما زخر به تاريخهم إنما هي صدى يؤكد ما أسسه علي (ع)، الذي لم يكن التلميذ المميز لرسول الله (ص) وحسب، بل التلميذ المتفرّد في حياته كلها...

فلا تتم الزيارة إلا بزيارة علي (ع)..

بعد المبيت في الفندق (الذي يقع في فرع من الشارع الذاهب إلى الكوفة) – الذي كان مريحاً حديثاً نظيفاً جميلاً –، ذهبنا صباحاً إلى المرقد الشريف، والشوارع الرئيسة إليه جيدة التنظيم، مع المتاجر والفنادق الحديثة.

لم أكن مصدقاً أنني في الصحن الشريف لمولى المؤمنين وحبيب القلوب... هل حقاً أنا الآن على بعد دقائق منه (ع)؟

إهتز القلب، وتحدث اللسان بحديث القلب، بسلام، وكلام، ودعاء، وشكر، وراحة نفس وكأنها تقول: ليحصل بعد ذلك ما يحصل!

تقرأ عن علي (ع)، تكتب عنه (ع)، تلقي المحاضرات، تنشر المنشورات، تحدث الناس، وصحيح أن هذه كلها يمكن أن تختلط العواطف فيها مع العقل والفكر والمعلومة الصحيحة والحجج القاطعة ودفع الشبهات وتحطيم الافتراءات، ولكن عندما تكون عنده، بينك وبينه متر أو متران، فإن القضية تدخل في عالم آخر...

إني أتيتُك أجتليك وأبتغي * وِرداً فعندك للعطاش معينُ

فأغُضُّ من طرفي أمام شوامِخٍ * وقع الزمانُ وأُسُّهُنَّ متينُ

وأراكَ أكبرَ من حديث خلافةٍ * يستامُها مروان أو هارونُ

لكَ في النفوسِ إمامةٌ فيهونُ لو * عصفتْ بك الشورى أو التعيينُ

(رحم الله الشيخ أحمد الوائلي صاحب الأبيات.)

عندما كنت أنظر إلى الناس الزائرين، أكثرهم يقف ويدعو، أو يزور، وبعضهم يمسح يده على الشباك ويذهب، وما ذلك إلا لأنهم اعتادوا على الزيارة، كنت أقول في نفسي: إنكم لا تدرون أي نعمة هذه، لم تعودوا تشعرون بها حقاً...

وكما مع ولده الحسين (ع)، في بالي أن هذه لقمة للتذوق وليس للشبع، هذه حققت الأمنية قبل الموت، ولكن الحاجة في النفس إلى زيارات وزيارات... فعسى أن يحقق الله ذلك قريباً.

*

زيارة الكوفة

وصلنا الكوفة بعد نحو عشرين دقيقة، ووجدنا موقف سيارات صغير جداً في شارع خلفي متفرع من شارع متفرع من الشارع الرئيس. شوارع حالها سيء، ولا يبدو أن

هناك مجرد تفكير بالقيام بالحد الأدنى من التحديث أو الصيانة على الرغم من كثرة الزوار على مدار السنة.

سرنا صوب مسجد الكوفة، وفي الداخل أول ما زرنا مرقد مسلم بن عقيل (ع) (الذي وصفه الإمام الحسين (ع) أنه ((ثقتي من أهل بيتي)))، ذلك السفير المبعوث من الإمام الحسين (ع) قبل توجهه إلى العراق، والذي بعد أن سيطر على الموقف إنتهى به الأمر غريباً وحيداً، ثم قتيلاً شهيداً.

هذا يعني المعلومات التاريخية عنه (ع) ممتزجة مع العواطف الحزينة لما جرى عليه، وما هو مرتبط بما جرى على ابن عمه الحسين (ع) وأهل بيته والصفوة الطيبة من الأصحاب (رض) – بما يعرفه الجميع.

كانت الصلاة قد حان وقتها ونحن في الطريق، فأدينا الظهرين، وقمنا بالدعاء في ذلك المكان التاريخي – مسجد الكوفة المعظم، حيث صلى فيه أمير المؤمنين (ع) نحو خمسة أعوام ثم ولده الإمام الحسن (ع) نحو سبعة أشهر مدة خلافته بعد أبيه.

*

زيارة سامراء – المنقوصة

بقيت سامراء، بقي الإمامان العسكريان علي الهادي وولده الحسن العسكري (ع)، بقي الجد المباشر والوالد لإمام زماننا صاحب الأمر (ع)، ما يعطيهما خصوصية مع الموقعية العامة للأئمة الإثني عشر (ع).

كما أن لسامراء خصوصية بالنسبة إلي شخصياً، فهي بلد العشيرة (ألبو كنعان، ولنا مشيختها، وهي فرع من قبيلة ألبو عباس أكبر القبائل/العشائر السامرائية، والتي يرجع نسبها إلى الحسن المجتبى (ع))، وفيها ذكريات، كما علائق أخرى لا تزال موجودة (مزرعة الوالد رحمه الله وبستانه، والتي هي الآن تحت إدارة أخي الأكبر، وبيت جدي في محلة سوق الهُود قرب الحضرة العسكرية).

بسبب الوعكة الصحية تأجلت الزيارة خمسة أيام.

كنت متعباً جداً، ولكن الله أعانني، بالحالة الروحية التي يمنحها الإمامان (ع)، كما بأخي العزيز أبي عمر الذي استندت إلى ذراعه، ولا سيما في المسافة الطويلة جداً، حيث أن الدواعي الأمنية جعلت موقف السيارات قرب القائمقامية (مركز الحكومة المحلية لقضاء سامراء) والتي تبعد ربما 15 دقيقة سيراً على الأقدام. مع التعب، كان الجو حارّاً نسبياً.

شعرت أن فمي كان يتيبّس، ولكن عندما دخلنا الحضرة المباركة ساعد تكييف الهواء على تخفيف الحال.

المهم أنني وصلت إلى شباك الإمامين (ع)، وفي الداخل معهما السيدة حكيمة بنت الإمام الجواد (ع) (أي أخت الإمام الهادي (ع)) والسيدة نرجس والدة صاحب الأمر المهدي (ع).

كان الزوار، من عراقيين وغيرهم، أقل بكثير من زوار النجف وكربلاء، لأن مناسبة النصف من شعبان كانت قد مرّت قبل أيام.

بعد الزيارة، والتقاط الصور هناك، ثم صور أخرى في أقسام أخرى من الحضرة بعد التوسعة الكبيرة، جلست إلى إحدى مناضد الصلاة، وأديت الظهرين.

خرجنا، وإذا بيد أبي عمر تشدّني إلى اليمين، وهو يقول: الآن إلى السرداب!

فوجئت بالسلم إلى السرداب، حيث يبدو بعرض ربما ثلاثة مرات ما كان عليه في الماضي. نزلنا الثلاثة سلالم المكونة للسلم كله، ووقفنا عند شباك الغرفة الصغيرة، والتقط لي أخي صورة هناك.

بعدها خرجنا، وذهبنا إلى مبنى آخر خاص بالمرافق الصحية. وكان من طابقين، بسلالم كهربائية ومصعد (فكان أيسر لي). المرافق فيها ليس فقط غرف المراحيض/التواليت وأماكن الوضوء والتغسيل، ولكن أيضاً غرف حمامات.

العودة إلى الخارج كانت أيسر، فقد وجدنا مكانين في السيارة الكهربائية التي كانت كلها نساء، فجلست إلى جانب السائق، وأرسل أبا عمر إلى الخلف في المكان الوحيد المتبقي!

توجهنا مباشرة باتجاه بغداد، وعندما وصلنا إلى مْعيجِل، حيث مزارع وبساتين والدي وآخرين (8 كم جنوب سامراء باتجاه بغداد)، أوقف إبن أخي السيارة كي ألقي نظرة سريعة، وذلك تحاشياً لضغط الفلاحين بالنزول...

وبالفعل بعد سيرنا بدقائق قليلة اتصل عدنان، أحد الفلاحين (وهو أحد أولاد المرحوم حمدي فلاح المرحوم والدي أيام زمان)، وقال إنهم بالانتظار وقد ذبحوا وهيأوا الطعام! إعتذر لهم أخي وأنني بصحة ضعيفة الخ. ثم كلمته وسلمت عليه واعتذرت، وقال لا يمكن أن يأتي أبو جعفر والحجية (زوجتي) ولا تنزلون ونضيفكم... هذه العادات في القرى والأرياف والعشائر العراقية الأصيلة التي لا يستطيع الزمان وصروفه أن تغيرها.

إعتذرت أكثر ووعدتهم أننا لا بد سنزورهم في المستقبل القريب.

عدم زيارة المزرعة والبستان أحد أسباب اعتباري لزيارة سامراء أنها "منقوصة"، لأن تلك المناطق ليس فقط مما ورثناه عن الوالد رحمه الله، ولكن – وهو الأهم – مما تحمله من الذكريات الكثيرة منذ الصغر وحتى قبل المغادرة.

سبب آخر هو أنني كنت أنوي زيارة الأقرباء والعشيرة، وأمكث هناك بضعة أيام، ولأنني خشيت أن لا تسنح الظروف – كما حصل – فإنني لم أخبر أحداً منهم.. وإن كنت أشك أنهم لم يعرفوا لحد الآن!

السبب الأخير هو زيارة بعض المناطق الأخرى، مما يتعلق بالخلافة العباسية، ومنها ما يسر كالمئذنة الملوية (التي صعدت عليها مرتين في صغري، مرة إلى الدور/اللّفّة الثالثة فقط وأنا في الثالث الابتدائي، ومرة أخرى إلى أعلاها تماماً في السادس الإبتدائي، حيث استلقينا على وجوهنا والمدير الست هند حميد رأفت رحمها الله عندنا، حيث رفضت أن نصعد إلا وهي معنا – مع شدة الريح وقتها) وغيرها من

الآثار، ومنا ما يحزن كسجن الإمام الهادي (ع) والذي تم فتحه وترتيبه لمن يريد زيارته.

ولا بد من التنويه بالمساعدة والعناية التي قدمها العزيز إبراهيم، إبن أخي الأصغر، الذي أخذنا بسيارته، والذي حاول تسهيل الأمور، كما التقط لنا بعض الصور داخل المرقد المشرف. ثم في طريق عودتنا، لم تحب زوجتي أن تعود دون زيارة السيد محمد بن الإمام الهادي (ع) في مدينة بلد، وشجعها إبراهيم على ذلك، فتوقفنا في موقف السيارات، ونزلت أم جعفر وتوفقت لزيارة سبع الدجيل كما يسمونه.

*

مراقد عديدة تنتظر

العراق يزخر بالمراقد المشرفة للكثير من ذرية النبي (ص)، كما لغيرهم.

فمن الأنبياء (ع)، هناك ذو الكفل (ع) بين الكوفة والحلة، وهناك أيوب (ع) في محافظة بابل/الحلة أيضاً. كما أن هناك مقامات لآخرين: آدم (ع) ونوح (ع) في الكوفة، وهود (ع) وصالح (ع) ضمن مقبرة وادي السلام في النجف، ومرقد يونس (ع) وجرجيس (ع) في الموصل، ومرقد عزير (ع) في العزير بمحافظة العمارة.

ومن ذرية النبي محمد (ص) وعلي (ع)، من ذكور وإناث، في مناطق مختلفة من العراق، كشريفة بنت الحسن (ع) في الحلة ومحمد بن الإمام الهادي (ع) في بلد في محافظة صلاح الدين والعباس بن علي شهيد كربلاء (ع) في كربلاء (وقد وفقت لزيارته) ومسلم بن عقيل (ع) عند مسجد الكوفة في محافظة النجف (وفقت لزيارته هو أيضاً) والقاسم في محافظة بابل..

وهناك من الأصحاب (رض)، كسلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان (رض) في المدائن شرق بغداد، وزيد بن علي بن الحسين (ع) وكميل بن زياد وميثم التمّار (رض) في الكوفة.

هذه كلها تحتاج إلى وقت وبرنامج وصحة تامة، ولم تكن متاحة مع الأسف، ولكن الأمل في زيارتها أو بعضها في المستقبل إن شاء الله تعالى.

ذلك أن هذه الأماكن الشريفة تشيع في النفس – للمؤمنين – ما لا تشيعه زيارة أية أماكن أخرى – لا أثرية قديمة أو حديثة، ولا أسواق ومقاهي، ولا أية مناطق فيها ذكريات مهما كانت عزيزة – فما يتعلق بالله عز وجل لا نظير له.

*

توصيل الطعام إلى المنازل

هناك شركتا توصيل الطعام من المطاعم المختلفة، إحداها اسمها "توترز" والثانية "طلبات". وكما في بريطانيا (شركة أووبرإيتس وشركة جستْئيت وشركة دَلِفِروو) يمكن إرسال الطلبات عبر التطبيقات على الهواتف أو الحواسيب، ومن المطاعم المدرجة فيها.

وقد قمنا بالاستفادة من هذا ونحن في النجف، حيث أن الفندق الذي نزلنا فيه يقدم فطور الصباح فقط. جاءت الطلبات بسرعة، ولكن بالكرم العراقي وليس البخل الغربي! وطبعاً كانت الطلبات أنواع الرز: أبيض أحمر أصفر زرشك، ومرق عديدة: سبزي طرشانة الخ الخ!

*

والتسوق عبر الانترنت

هناك شركة إسمها "ليمونة" يمكن استخدام التطبيق الخاص بها لشراء الكثير من المنزليات، الأطعمة والأشربة ومواد التنظيف وما إليها. ومن كثرة الدراجات النارية (موتورسيكلات) التي تراها في الشوارع تعلم أن الكثير من الناس يستفيدون من خدماتها.

*

شعر بنات شعر بنات!

الباعة المتجولون داخل المحلات السكنية أو في الشوارع العامة يضيفون نكهة خاصة – إضافة إلى الإزعاج الصوتي!

في السابق كان الباعة يصرخون كل دقيقة ببضاعتهم، مثلاً المرحوم "توفيق" بائع البرتقال كان يصيح "برتقال"، فإذا خرجت إليه أمي رحمها الله فقد كانت أرحم به – يعني البرتقالة مثلاً بـ 15 فلساً كانت تقول له: إشدعوه – 10 فلوس، ثم تشتريها بـ 12 فلساً؛ أما جدتي فكانت ستقول له: "فُوت فُوت – ما أشتريهه بـ 6 فلوس" ثم ترميها إلى العربة الصغيرة التي يدفعها! فيقوم المسكين بالشكوى من ذلك، ولكن ينتهي الأمر بشرائها بـ 8-10 فلوس!

أبو الخس لا يمكن أن يصيح "خَس" لأنها من مقطع واحد، فكان يقول: "أُو خـَس"!

وهكذا.

اليوم يستخدمون التقنية الحديثة، وذلك بتسجيل ما يريدون قوله، وبتكرار يؤذيك! وأعجب كيف يستطيعون تحمل هذا!

تجد بائع بيض، جالساً في مفترق طرق في الشارع العام، وأمامه طبقات البيض، والجهاز يصدح: بيض عراقي بسبعة بيض عراقي! (السبعة معناها سبعة آلاف دينار).

-

إلا أن الذي كان رفيقي الصوتي هناك هو بائع "شعر بنات"! كان يلف في الشوارع في البيت الذي نزلنا فيه، والتسجيل الصوتي يقول: "شعر بنات شعر بنات..." ثم كلمات أخرى غير مفهومة ثم "شعر بنات شعر بنات". وبعد قليل في الشارع الخلفي، وإن هي إلا نصف ساعة وإذا به في الشارع الأمامي مرة أخرى... ولا يترك المحلة إلا بعد نفاد ما عنده.

وعندما دعتنا أخت زوجتي على الغداء (في منطقة الشالجية)، كنا جالسين أنا وزوجها، وإذا ببائع الشعر بنات في منطقتهم يمر، ونفس التسجيل طبعاً! سألته: ما هذا الذي يقوله؟

قال إنه كان يتساءل أيضاً، ولما ضاق ذرعاً بذلك خرج يوماً وناداه وسأله، فكان الجواب إنه يقول:

"شعر بنات شعر بنات، أبو الهدايا والنُّفاخ، شعر بنات شعر بنات!"

سألت عن المعنى، قال: هدايا صغيرة، نفاخات، وما شاكل!!

*

شارع المتنبي: زيارة لم تتم ... مرتين

مؤلف مثلي لا يمكن أن يزور بغداد ولا يزور شارع المتنبي... ولكن هذا الذي حصل!

فشلت الخطة مرتين.. الأولى قبل يوم واحد من زيارة كربلاء والنجف، وكان قدمي تؤلمني فلم أشأ أن أجازف بزيارة الأئمة (ع) من أجل المتنبي. الحمد الله ذهبت زوجتي مع بعض الأقرباء وزارت الشارع كما بعض المقاهي وأهمها الشابندر.

في المرة الثانية، في الأسبوع الذي يليه، ولكن أصابتني وعكة صحية اضطرتني لملازمة البيت أربعة أيام. هذه كانت مؤسفة، لأنني كنت سأذهب ليس فقط إلى الشارع، ولكن أيضاً لزيارة غرفة والد زوجتي، الباحث والمؤلف الكبير "عبد الرزاق الهلالي" رحمه الله في "المركز الثقافي البغدادي"، حيث قامت أبنته السيدة عالية (مضيفتنا) بإهداء مكتبته إلى المركز، بعد عمل دؤوب استغرق نحو سنتين ونصف. ذهبت زوجتي وزارت، مع السيدة عالية، المكان، والتقطت الصور مع الموظفين، ثم تهيأ لها زيارة القشلة، الحديقة التي بالمعتاد مقفلة للجمهور.

هذا مكان أرجو أن أزوره في أية زيارة قادمة إن شاء الله، فإن جو الكتب والمكتبات من أجمل ما أحب أن أكون في وسطه. هذا إضافة إلى التحديث الذي أجري في الشارع والذي اطلعت عليه من الصور ومن التقارير الإخبارية من على شاشات التلفزيون.

*

مرافق تسلية وخرجات حديثة – حسب الرواية والصور

مما لم أزره ولكن حكت لي زوجتي عنه مرفقين سياحيين...

الأول "بارك ألف ليلة وليلة" في الأعظمية على نهر دجلة. يبدو أنه ذو تصميم جميل، وفيه مرافق متنوعة، منها تجاري في مركز تجاري يضم عشرات المتاجر، ومنها للتسلية وهذه بعضها داخلية: مطاعم ومقاهي ودار سينما وصالة ألعاب داخلية؛ وبعضها على النهر: رصيف لهواة صيد السمك ومطاعم عائمة على الماء، وشاليهات عائمة، مع مرسى تنطلق منه رحلات نهرية قصيرة جداً. كما أن هناك قاعات للمناسبات، وأماكن لإقامة الاحتفالات في المناسبات. والموقع يتمتع بمساحات خضراء ومسطحات مائية. وطبعاً هناك أماكن للجلوس على النهر والاستمتاع بالمنظر الجميل.

أما الثاني فهو "قرية دجلة" الكائن في منطقة المسبح/الكرادة. وهذا هو الآخر يضم المطاعم والمقاهي، وقاعات ألعاب رياضية، وصالة ألعاب إلكترونية، مع مسبح مغلق وصيفي. وهناك أيضاً مرسى للزوارق، وصالة حفلات. والموقع يتمتع بمساحات خضراء مطلة على النهر، يستمتع الناس بالجلوس هناك وأيضاً مشاهدة نافورات، ومنها نافورة راقصة يبدو أنها تمثل عنصر جذب لزيارة المكان!

ويبدو أن هذا المرفق السياحي صار جاذباً للكثير من الزوار. إلا أن بعضهم، أو أكثرهم، يشكون من ارتفاع أسعار ما يقدم في المطاعم هناك، ولهذا – كما يقولون – يكتفون بالاستمتاع بالنهر والنافورة والتجول فيها.

إن العراق، وليس بغداد وحسب، بحاجة إلى توفير المزيد والمزيد من هذه المرافق التي تمكن الناس من الترويح عن أنفسهم من متاعب الحياة، كما لإعطاء جرعات من الفرح

الذي يستحقونه هم وأولادهم وذويهم. العراقيون ليسوا أقل من شعوب المنطقة، بل والعالم، الذين يستمتعون بالكثير من هذه المرافق السياحية المنتشرة في مناطق مختلفة من هذه البلدان. كما أن المطلوب من البلديات توفير المرافق الترويحية المجانية في الحدائق العامة (والتي يجب السعي لتوسيع عددها ومساحاتها من أجل هذا الهدف كما من أجل البيئة والصحة العامة) لأن الكثير من الناس اليوم في حالة الفقر الذي لا يمكنهم من الدخول في هذه المرافق السياحية ولا سيما التي تكلف الكثير.

*

الأسعار... مقارنة بلندن

إشتريت سروالين (بنطلونين) حيث أن الذي كانت معي سميكة في ذلك الجو الجميل (الحرارة 20-25 درجة)، سعر الواحد منهما 6.50 جنيهاً استرليني بعد التخفيض فربما 9-10 جنيهات، أي على الأقل نصف سعره في لندن في المتاجر رخيصة الأسعار، وإلا فإن الفارق أكبر من ذلك بكثير.

كذلك أسعار بعض المستحضرات أو الأدوية، فارق واضح – ربما ليس كما في أعلاه.

أما الأطعمة، فأقل بشكل واضح، ليس فقط المطاعم الشعبية، ولكن المطاعم الحديثة أيضاً.

وأما أسعار النقل، التاكسيات، وبضمنها "كَرِيم" و "بَلِي" (لا يوجد أووبر في العراق)، فإنها أقل من لندن بما لا يقاس.

هذه الأسعار نسبة إلى مستويات الدخل للموظفين، وحتى بعض المتقاعدين، توفّر إمكانية للعيش المريح، أو على الأقل دون ضنك...

إلا أن المشكلة هناك في السكن، فإن أسعار الشراء للعقارات مرتفعة أصلاً، ثم ارتفعت بشكل جنوني حقاً منذ سنتين أو ثلاث (إحدى النظريات تقول أن السبب هو الأموال المنهوبة، أي التي يتم نهبها حالياً، صار السراق يشترون بها العقارات، لأن ذلك أسهل

في التغطية عليها في حالة الملاحقة، وقد كانوا من قبل يشترون العقارات في الخارج ومنها لبنان، فلما حصل ما حصل في لبنان من عملية تهريب أمريكي بتواطؤ المصرف المركزي لأموال المودعين، من أجل تشديد الضغط على اللبنانيين ضمن خطة اتهام المقاومة الإسلامية البطلة هناك، صار إيداع الأموال في الخارج غير مضمون – هكذا). وبالتالي فإن الحل هو الإيجار، وهذا ليس بالقليل، يستهلك نسبة كبيرة من الرواتب.

*

الناس المتشائمون

لا يمكن لوم الإنسان العراقي إن وجدناه متشائماً من الأحوال في العراق، راغباً في مغادرة البلاد بحثاً عن أحوال أفضل. ذلك أن المشاكل كثيرة، وفي جميع المجالات دون استثناء.

بعض الشباب يرغبون بالمغادرة، حالهم حال الشباب في جميع أنحاء العالم الذي يسمونه الثالث (تسمية غربية من أغراضها إبقاؤنا نشعر بتفوقهم وبالتالي ضرورة اتباعهم في كل شيء!)؛ هذا بالخصوص للعاطلين عن العمل منهم، أو للذين تعرضوا أو يشعرون بمخاطر أمنية أو غيرها.

من جاوزوا سن الشباب، وكونوا عوائل، إندمجوا في الحياة كلها، وبالتالي صار المتشائم منهم في حالة كئيبة كونه لا يفكر في أمل بعيد في ديار الغربة.

مؤكد أن هناك من يتمتع بالحكمة وبعد النظر، فيرى أحوال العالم كلها تتدحرج من سيء إلى أسوأ وربما إلى مواجهة مدمرة تتأثر بها دول العالم الأول بالخصوص.

على أية حال، لم ألتق إلا بالقليل من الأقرباء وغير الأقرباء، فالحكم على الحال سيكون خطأ بيناً، ولكن مما سمعته أستطيع القول أن هناك من هو متشائم من الحال ويتمنى لو يغادر العراق اليوم قبل الغد. ولعل البعض من هؤلاء حاول تحقيق ما يريد داخل

العراق، وربما مارس العمل، ولكن الظروف تغيرت. والبعض الآخر ربما يتعلق مزاجه بالخارج وما يسمع عنه من حياة ملونة جميلة وكأنها بلا مشاكل مطلقاً!

ومؤكد أن هناك من يشيع التشاؤم ممن تأثروا سلباً من الأحداث بعد التغيير الكبير سنة 2003. من هؤلاء من هم من الحكم الساقط وأحبابه ومؤيديه، والبعض الآخر من الناقمين على التغيير لأسباب أخرى، فتأتي الماكنة الإعلامية المعادية للعراق والأمل في مستقبله – من القنوات الفضائية الخبيثة أو المعادية صراحة، أو من الجيوش الإلكترونية على شبكات التواصل الاجتماعي – لتنفخ في هذه النار التي تشيع اليأس فتشجع على التشاؤم.

*

الناس المتفائلون

مع ذلك، تجد هناك من يتحدث بتفاؤل كبير، سواء من هو مؤيد للتغيير سنة 2003، أو من لا يعنيه ذلك قدرما يعنيه حال البلاد وما سيتغير فيها نحو الأفضل بما سيؤثر عليه وعلى غيره بشكل إيجابي.

وجدت البعض من المتفائلين ممن هم في سن الشباب، وبالتالي يعتبر أنه من جيل ما بعد 2003، فضغوط ما قبل ذلك والعقد النفسية والضغوط الحياتية في ذلك العهد الأسود لم يعشها حقاً، وبالتالي فإنه ينظر إلى الأوضاع بانطلاقة طازجة، فيجد العراق فيه الإمكانيات الكبيرة للتقدم والنمو.

آخرون ممن هم أكبر سناً، وممن عاش العهدين، ينتقد الأحوال الحالية لكنهم متفائلون بقدرات البلاد – القدرات في الأرض كما في البشر – أنها ستمكن العراق من أن يتطور إلى الأفضل دون شك.

هؤلاء وهؤلاء لا يطلقون نظرتهم في المستقبل كحالة أمل مجردة، بل يشيرون إلى الذي يتحقق، وقد تحقق الكثير (لأن أعداء التغيير يصورون الواقع وكأن شيئاً لم يتحقق

مطلقاً – وهذا كذب)، كما يشيرون إلى الإمكانيات الواعدة للاستثمار من الخارج كما من التحسن الذي لا بد منه في أداء الحكومات.

*

الذين يترحمون على اللعين

لا يعدم أي مجتمع من وجود بعض الناس الذي يحبون الذلّة ويحبون الطغاة الذين يذيقونهم الذل وينكلون بهم ويدمرون مجتمعهم وبلادهم. وكما أن هناك "القابلية للاستعمار" (بالعين) كما سماها المفكر "مالك بن نبي"، فإن هناك "القابلية للاستحمار" (بالحاء) عند الذين يقبلون أن يصبحوا حميراً يصدقون الطغاة في كذبهم وافتراءاتهم حتى بعد وضوح حال أولئك الطغاة، مرات ومرات. على أنه ينبغي القول أن المشكلة ليست على الدوام هي "الاستحمار" الذي يقبله الإنسان لنفسه، ولكن وجود أي مشاكل أخرى وعقد نفسية أو فكرية لا تتعلق بالضرورة بالطاغية من شأنه أن يجعله فريسة سهلة للطاغية وإعلامه الكاذب.

العراق ليس استثناء؛ لكن يضاف إليه أن الطاغية اللعين تسلط لعشرات السنين، وبشكل بوليسي شامل، وبقمع لا يعرف حدوداً لا في أنواعه ولا في شدته.

ولكن المؤسف هو أن المصائب التي نزلت على الوطن والمواطنين كانت من الكثرة والشدة ما لا يمكن قبول أي اصطفاف من أي مواطن مهما بلغت درجة "حموريته" أو درجة ذلّته. هكذا هو الحال.

لم أكن مع زوجتي وأختها عندما ذهبتا إلى سوق الأعظمية. حكتا لي أنه في أحد متاجر الملابس صار صاحب المتجر يثني على اللعين المجرم ويترحم عليه. ويبدو أنه يريد إيذاء الناس أو أنه يتمتع بقدر من الرعونة، فنظر إلى زوجتي وسألها: ما بالها (أي أختها) تغير وجهها عندما ذكرت السيد الرئيس (يقصد اللعين)؟!

أجابته أخت زوجتي: لم يتغير وجهي.

تقول أنها ربما تتذكره قبل سنوات على ذات الحال. هذا يعني أنه يتكلم كما يشاء دون خوف. فلنسأل هذا "المُطي": هل كان يمكن لأحد من العراقيين أن يثني ويترحم على أي أحد لا يرضى به ذلك اللعين وحزبه وأنصاره؟ أفلا يشير إليك هذا الفارق إلى الفارق بين ما تتمتع به من حرية رأي الآن وبين ما كان عليه الحال في ذلك العهد الشاذ في كل شيء؟

طبعاً إني لا أعلم كيف يمكن لأي عراقي، مهما بلغت درجة وطنيته من السفالة، ذكر ذلك المجرم الكبير بالخير وهو يعلم ما الذي فعله مع الجميع، وما فعله بالعراق كله، إلى أن أوصله إلى الغزو والاحتلال وما جرى بعد 2003 وإلى الآن..

ولكنها نفوس خرائب لا علاج لها.

واللوم كل اللوم على هذه الشخوص الضعيفة التافهة الذين صاروا في الحكم وسمحوا لذلك المجرم أن يكون له ضريح يزار من المدارس والناس، وتغاضوا عمن يرفع صوره في بعض المناطق، ولم يجرّموا الذين يثنون عليه بعد كل الذي جرى. ولكن يبدو أن الغيرة على الوطن والمواطنين الذين جرى عليهم ما جرى غير موجودة.

*

عقدة إيران في العراق: كما نعلمها

لا يخلو بلد من مشاكل شديدة مترسّخة في الذات، وهذه أسميها "عُقد" لأن المشاكل التي تنتج عن الظروف المؤقتة إنما هي مشاكل مؤقتة. نعم، يمكن لهذه المشاكل المؤقتة أن تؤثر على ذات المواطن، خصوصاً إذا ما استمرت مدة طويلة، وبشكل أخص إذا ما كان هذا المواطن أو ذاك في الطرف المتلقي لآثارها السلبية.

فالعُقدة ليست كغيرها من المشاكل، والدليل على ذلك أنه تستمر على اختلاف المراحل الاجتماعية التي تمر بها البلاد وعلى اختلاف الظروف السياسية مهما تباينت.

في العراق عندنا عقدة هي الأشد: عقدة إيران. ولأهميتها وفاعليتها الدائمة كتبت فيها ما يكفي لإخراجه ككتاب صغير. ولأن المجال هنا يسع، ولا هذه الانطباعات تناسب الإسهاب في هذا الموضوع الشائك الفاعل في الساحة اليوم في كل ساعة، دعوني أسرد محتوى ذلك البحث:

1- (1) المعنى المقصود من "العقدة" (2) مراحل تطور هذه العقدة

(3) عقدة إيران في العراق – ما قبل 1979 أولاً / عقدة إيران عند سنة العراق

(4) عقدة إيران في العراق – ما قبل 1979 ثانياً / عقدة إيران عند شيعة العراق

(5) إشتداد العقدة الإيرانية – مرحلة 1979-1991

(6) تطور العقدة الإيرانية – مرحلة 1991-2003

(7) تغير العقدة الإيرانية بين الاشتداد وعدم وضوح الرؤية – مرحلة ما بعد 2003.

في هذه الزيارة القصيرة، وعلى قلة الكلام في هذه المواضيع، بل شبه انعدامها، إلا أنني استطعت أن ألتقط ما يعزز رؤيتي التي في البحث المشار إليه أعلاه من وجود عقدة إيران عند أهل السنة العراقيين، أحياناً للجنبة القومية حقاً، وأحياناً أخرى للجنبة الطائفية التي في الغالب يتم تغطيتها بالجنبة القومية أو السياسية – ولأنني خبير في هذه الأمور فإنني ألتقط أقل إشارة، فلا يستطيع المتحدث أن يخفي حقيقة مشاعره.

وأما عند الشيعة، فالذين عندهم الجنبة القومية العربية شديدة فإنهم مستاؤون، وعليه ناقدون، للنفوذ الإيراني الكبير في العراق اليوم. وأما الذين ليست عندهم هذه الجنبة، فما بين الناقد لإيران كونها تصطف وتدعم الكثير من الخونة الفاسدين في السلطة أو تشتمل بعض سياساتها على ضرر للعراق، وبين الذين يسكتون عن هذا، وبين الذين يؤيدون إيران من المنطلق المذهبي أو المنطلق الوطني العراقي الذي يعتقد أن الجمهورية الإسلامية تدعم العراق ضد الهيمنة الأمريكية الصهيونية كما ضد الحرب الوهابية ضد شيعة العراق والتي لم تزل تُشن ضدهم بشكل أو بآخر.

ولا شك في أن للاختلاط الطائفي، سواء بالزواج أو العمل أو الدراسة أو الصداقة، تأثيراً كبيراً على الموقف من إيران – سلبياً إو إيجابياً –، لأن من أهم أسباب المواقف العدائية هو الجهل بالآخر، حيث تبنى المواقف على ما يقوله أعداء الجهة المقابلة، وبما أن الشخص يعيش العقدة فإنه يستقبل ما يقوله الأعداء بترحاب (كي يبقى يعيش في راحة أنه على الطريق الصحيح – وهذا معروف في سائر مجالات الحياة). فالاختلاط الطائفي يخفف من حدّة العداء هناك، كما يخفف من شدة الولاء غير المنطقي هنا، ما ينتج عنه في بعض الأحيان مواقف أكثر توازناً وصحة.

*

مطار بغداد: قمة الأخلاق وقاع النظافة!

عند الوصول لم نمكث في مطار بغداد إلا على قدر أخذ الحقائب ثم الخروج إلى موقف السيارات حيث استقبلنا الأخ أبو حسن وولده.

أما عند المغادرة فقط مكثنا أكثر من ثلاث ساعات، لأننا وصلنا مبكراً. ذهبنا بتاكسي يسمونه المميّز، وكانت سيارة جديدة، والسائق "لم يقصّر" في القيادة بسرعة أكثر من اللازم. (ولكنه – وبعد اتصالات مع مضيفتنا حيث كان عندها هاتفه عندما حجزت لنا – عاد بسرعة عندما أعلمته أنني نسينا حقيبتي اليدوية.)

كان الاستقبال من قبل جميع الموظفين جميلاً كريماً – الذي جاءني بكرسي متحرك للتسهيل (رغم أن المطار ليس كبيراً، وأنا معتاد على السير مسافات أطول في مطار لندن والقاهرة التي نزورها كل عام تقريباً)، ويطمئنني أنه سيكون معي إلى باب الطائرة.

وعندما فتحت نقطة الجوازات، جاءنا وأخذنا إلى هناك، وكان الموظفون يرحبون ويطمئنون على الصحة، ولا تتركهم إلا وقد دعوا لك بالسلامة متمنين رحلة مريحة.

هذه الحالة لا تجدها في مطار لندن، حيث أن جميع ضباط الجوازات وجوههم لا تعبير فيها (أظن أنها التعليمات، وإن كانوا يختلفون بعضهم عن البعض قليلاً)، ولا في مطار

القاهرة، على الرغم من أن الضباط المصريين يمكن أن يرحب بك بعض الشيء. حتى في مطار الدوحة حيث هو خط سيرنا إلى بغداد، لم نجد مثل هذا.

ومن الخبرة في المطارات الأخرى في العقود الماضية، وحسبما تقول زوجتي وغيرها ممن استخدموا مطارات أخرى لا أعرفها، لا يوجد مثل هذا الاستقبال.

هذا من أجمل ما يكون للمسافر، لأنه يشعرك بالراحة وعدم التوتر خصوصاً إذا ما كنت متعباً. كما أنه للمسافر العراقي المغترب أمثالنا، فإنه يشعرك أنك بين أهلك وبالتالي إنما تغادرهم ربما مؤقتاً.

على النقيض من هذا هو حال النظافة في المطار كله. فالمرافق الصحية حالها مزرٍ، في حال بنائها القديم، والنظافة، وكأنه لا يوجد من يقوم بالتنظيف المستمر. إمرأة مسنّة على الباب، ترتدي ملابسها العادية (أي ليست ملابس رسمية)، تجلس على الباب وبيدها عمود خشبي في نهايته "مكرافة" ماء الأرضيات – وكأنها ترحب بالداخلين بهذا الشكل!

جميع زجاج المطار – زجاج بني غامق يرتفع إلى السقف العالي – يعلوه الغبار الذي يبدو وكأنه لم يسمح منذ أسابيع، وربما شهور...

ويبدو أن هناك فتحات إلى الخارج، لأن الحمام يحط قرب السقف، وتنزل بعض الحمامات إلى الأرض!

مطار العاصمة، وجه البلاد، لا يمكن أن يكون بهذا الحال. والظاهر أن الناس صارت تعترض وتنشر عن ذلك في شبكات التواصل الاجتماعي، فيرد عليهم تصريح رسمي: حال المرافق الصحية لا يمكن أن يتحسن في يوم وليلة! ليت أحداً يقول له: ومن قال لك أنك يجب أن تترك المرافق الصحية إلى أن تصير بهذا الحال المزري ثم تتحرك للصيانة والتنظيف؟! بعض المطارات يدخل عمال النظافة بعد كل مستخدم، ولكن لا نريد المبالغة، المهم أن يكون التنظيف بشكل مستمر طيلة الـ 24 ساعة.

*

صور الرموز الدينية المبالغ فيها

كما هي حالة قطع أسماء المتاجر والمطاعم التي تشعر في بعض الشوارع أنها تطبق على رأسك فإن صور الرموز الدينية، سواء التاريخية كصور الأئمة (ع)، أو المعاصرة من مراجع الدين وغيرهم، تملأ الكثير من الشوارع، بشكل لا أجده منطقياً إلا في أيام المناسبات الدينية أو الوطنية، ولكن ليس على الدوام.

ولا شك في أن هذا يزعج المواطنين من الطائفة السّنّيّة في المناطق المختلطة لأنه يذكرهم على الدوام بالوضع السياسي القائم، والذي هم غير مرتاحين له – هذا بأقل التعابير.

*

الوطنية والمولّدة

من الأمور المعتادة بشكل مستمر في العراق اليوم هو التبادل في التغذية الكهربائية بين الكهرباء التي تأتي من الشبكة الوطنية وتلك التي تأتي من المولدة المحلية (التي تغذي الدور في عدة شوارع). والاشتراك في الأخيرة حسب ما يحب المشترك، حيث يشتري عدداً من وحدات التيار الكهربائي الأمبير ويدفع ذلك شهرياً.

أنت جالس في الدار وإذا بالتيار الكهربائي ينقطع، فإن جاءت الكهرباء مباشرة فإنها الوطنية – كما يسمونها، وإلا، إن بقي الظلام لدقيقة أو أكثر فإن الوطنية هي التي توقفت والمولدة ستعمل.

التغذية من المولدة تأتي عبر أسلاك سمكها صغير (لأن الاشتراك يكون بتيار صغير، 10 أمبير، بل وحتى 5 أمبير، وأكثر لمن يريد تشغيل أكثر من وحدة تبريد مثلاً)، ولهذا تجد هذه الأسلاك معلقة عبر الأعمدة والبيوت في جميع الشوارع، في منظر مؤسف حقاً. كما أنه يمكن أن يكون خطراً، وبالفعل – كما أخبرت – في فصل الصيف تحصل حرائق من هذه الشبكات المتدلية في كل مكان.

*

زيارة مقبرة الكرخ – قبر أمي

أمي، تلك الشخصية الجميلة، التي أحبت الناس وأحبها الناس... المولعة بالعطاء، والسعي في حوائج الناس ولا سيما الفقراء والمحتاجين والمنكسرين... الساعية في الإصلاح بين الناس ((وإصلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام)) كما ورد في الخبر... التي كانت تحب الله ورسوله (ص) حباً شديداً، وتحب أهل البيت (ع) وتزورهم، وتشارك في مجالس عزاء سيد الشهداء (ع)، بل وتعتقد – خلافاً لأهل السنة، وكانت منهم – أن الإمام المهدي هو الحجة بن الحسن العسكري (ع) (كم أرسلت إلي في الغربة، وجاءت لي عندما زارتنا عدة مرات، تلك المناديل الحاملة لبركات المراقد المشرفة)...

تالية للقرآن أبد الدهر... تحب الصيام كثيراً، تخالف في ذلك تعليمات الأطباء – كان تعبيرها "أباوِك"، أي أسرق بعض الأيام لأصومها رغماً عن منع الطبيب!

وهي بعد، من الرعيل الثاني من معلمات العراق، بعد المدرسات العربيات والقليل من المدرسات العراقيات قبلها.

الحمد لله أنها زارتنا في الغربة ثلاث مرات، آخرها قبل وفاتها بأقل من سبع سنوات (توفيت سنة 2009)...

وفاتها ترك الفراغ الأكبر في حياتي، إذ لا يمكن تعويض الأم بالنسبة لأي إنسان، وبالخصوص لأصغر الأولاد مثلي، كيف وهي كانت تلك الأم في صفاتها الجميلة...

من أهم أهداف زيارتي للعراق هو زيارة قبرها، ولكني كنت متهيباً بعض الشيء، إذ أنها كانت موجودة في حياتي كلها، كيف سأقف إلى جانب قبرها وحسب.

أخذني أخي أبو عمر حفظه الله في سيارة تاكسي إلى مقبرة الكرخ – ولا أدري لماذا سمّيت بهذا الإسم وهي واقعة على أطراف بغداد قرب أبو غريب، فأين هي من الكرخ!

المقبرة كبيرة جداً جداً، وفيها شوارع داخلية كثيرة، وتجد فيها صور بعض الموتى، ومنهم في الداخل كما في بوابتها صور بعض الضباط الشباب من الجيش العراقي الذين قضوا في محاربة الهمج الذين هجموا على العراق قبل سنوات – رحمهم الله تعالى وغفر لهم وحشرهم مع الصالحين.

ألفت أبو عمر نظري إلى القبور التي تجاوزت على الأرصفة الداخلية الضيقة أصلاً، قائلاً: حتى هذه الأرصفة لم تسلم من التجاوزات!

بعد المرور بعدة شوارع داخلية وصلنا إلى المقبرة، وهي أرض مساحتها جيدة، مسيجة بسياج حديدي، وباب بأقفال، وخارجها بئر ماء مع مضخة بناه أخي رجاء الثواب لأمي رحمها الله ممن يشربون منه.

عندما دخلت، توجهت أولاً إلى قبر أمي، ولا حاجة إلى القول كيف كانت مشاعري ولا بكائي الذي هزّني هزّاً، وأنا بين مشاعر الحزن الشديد للفقدان وكأنه حصل توّاً، ومشاعر الرضا أن الله حقق لي ما كنت أريده من زيارتها...

تذكرت في أفكار سريعة خاطفة بعض كلامها، كما تذكرت حنوّها عليّ، فشعرت بالطفولة مرة أخرى... واقع حالي هو أنه لا يمر يوم، ولم يمر يوم حتى أثناء حياتها، ولم أتذكر، فأردد، بعض كلماتها – بعضها من مفردات وتعبيرات ذلك الجيل، وبعضها مما لم أسمعه إلا منها... مرة أخرى، كان هذا مما يرسّخ الشعور بالغربة، كما الشعور بالفقدان الكبير...

كان أخي يقف مقابل قبر زوجته الأولى – إبنة عمي وأم أولاده التي توفيت بعمر 38 عاماً – يقرأ لها ولأمي الفاتحة والأدعية، بينما أنا أقرأ لأمي وأدعو وأبكي وأعيد وهكذا...

ثم وقفت أمام قبر ابنة عمي نداء عبد القادر ماهر (14)، فكانت أحاسيس الحزن على وفاتها المبكرة وقد تركت ثلاثة ذكور وأنثى بعمر شهرين فقط بعد ولادتها (توفيت سنة 1994 عن 38 عاماً).

إلى جانبها كان قبر أخيها رعد (15).

ثم مشيت بضعة أمتار إلى اليسار حيث قبر خالي الأكبر صفاء عبد الوهاب (16) وخالي الأصغر فخري عبد الوهاب (17)، وقد توفيا في التسعينيات... ذكرت اهتمامهما بي وبنا عموماً...

هذا التاريخ القديم جعلني أبكي بحرقة ما أن وقفت على قبريهما – مع أن التواصل كان مقطوعاً منذ أن تركت العراق وحتى وفاة كل منهما، ما عدا مرة واحدة كان خالي صفاء في بيتنا بعد حادث سيارة، فجاؤوا به إلى بيتنا لتقوم أمي وأخي صفوان برعايته اليومية، فاتصلت هاتفياً وسلمت عليه. رحمهما الله.

آخر قبر كان قبر المرحوم محفوظ/عبدالحافظ عبد الرزاق، أكبر أخوال أولاد عمي، الذي توفي السنة الماضية.

*

زيارة مقبرة وادي السلام – وقبر والدة زوجتي

مقبرة النجف الأشرف، المعروفة باسم "وادي السلام"، حيث الدفن بجوار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) يأمل منه الدفين الراحة والسلام بعد الموت، أكبر مقبرة في العالم، حيث يعتقد أن عدد المدفونين فيها نحو 6 ملايين. تقع إلى الشمال الغربي من مدينة النجف، وهناك أكثر من طريق يؤدي إليها.

عندما خرجنا من النجف عائدين إلى بغداد كان مرورنا في هذه المقبرة وذلك لثلاثة أهداف: الأول زيارة المقبرة عموماً، الثاني زيارة قبر والدة زوجتي، الثالث رؤية الأرض التي اشتريتها قبل سنوات لتكون مدفناً لي ولمن يشاء من أسرتي وغيرهم.

تدخل المقبرة فتجدها مفعمة بالموت والحياة في نفس الوقت! فعدد الزائرين كثير جداً، والسيارات والدراجات النارية والهوائية في شوارعها الداخلية في حركة مستمرة، وكل هذا وسط هذه الملايين من القبور... تواصل بين الأحياء والأموات...

إستغرق العثور على قبر المرحومة العلوية باكزة النواب نحو ساعة، حيث أن قبرها في مقبرة السيد فخري الموسوي المعتوق رحمه الله، زوج أخت زوجتي الكبرى، ولم يكن هناك من قطعة عليها الإسم أو أي علامة مميزة، وكانت سطوح القبور فيها مائلة إلى الداخل وبالتالي لم نلمحها من الخارج على الرغم من مرورنا عدة مرات من جانبها، حيث أن المقبرة تقع في موقع جيد على أحد الطرق الداخلية الرئيسة. هذا، ونحن في تواصل على الهاتف مع بغداد، مع أخوات زوجتي، للتأكد من العنوان.

توفيت خالة أم علي سنة 2012، ودفنت في مقبرة السيد فخري الذي توفي قبل ذلك بسنوات، ودفن معه بعض أقربائه...

قرأت لها السورة المباركة الفاتحة، ودعوت لها (18)، وأنا أتذكرها وأتذكر شخصيتها المميزة وصوتها وكلامها (18)... من بعد أمي، كانت من السيدات اللواتي تركن فراغاً كبيراً في حياتي...

طبعاً، قرأت الفاتحة مع الدعاء لصاحب المقبرة السيد فخري (19).

أوصلنا صديقي أبو حسن إلى مقبرتي، والتي سيّجها لي بعد شرائها وكتب عليها بيتي الشعر الجميلين:

وفدتُ على الكريمِ بغيرِ زادٍ * من الحسناتِ والقلبِ السليمِ

وحملُ الزادِ أقبحُ كل شيءٍ * إذا كان الوفودُ على الكريمِ

(ولهما قصة أن سلمان الفارسي (رض) نظم البيت الأول، فأنشده وأنه سيقوله عندما يفد على الله تعالى؛ فأجابه الإمام علي (ع) بالبيت الثاني، ليقول له أن الكريم لا يرضى أن يأتيه الضيف بالزاد فهو عيب كبير، بمعنى أن كرم الله عز وجل يكون أوضح مع المذنبين.)

كما كتب اسمي وقبله "المحروس بالله"!

هذه الكلمة يبدو أنها مفيدة، لأننا عندما عدنا بعد تفقد المقبرة، وكانت عالية، أخت زوجتي، تنتظرنا في السيارة، سألتنا: **"هل قرأتم الفاتحة؟"**

أجابتها إيمان: **"على من نقرأ، وهو هنا لا يزال بيننا؟!"**

*

رفيق الزيارات ودليلها

الأخ حسين حمادي، أبو حسن، كما استنتجت من حديثه وعنه من غيره (21)، يجد الراحة والسعادة ليس فقط في زيارة المراقد المشرفة للأئمة (ع) وغيرهم، ولكن أيضاً في اصطحاب الآخرين إلى الزيارات، وبذل أي جهد مطلوب في هذا السبيل؛ وعليه، فهو لا ينتظر شكراً.

ولكن الشكر، كل الشكر، يتوجب مني للأخ أبي حسن، الذي كان نعم الرفيق في استقبالنا في المطار، ثم في زيارات الكاظمية وكربلاء والنجف، حيث كان المرافق والدليل والمعين، في الطريق إليها من بغداد حيث أخذنا في سيارته، وفي التجول في الشوارع والأزقة، وأهم من هذا كله كان الذي يقودني إلى شبابيك المراقد ويفتح لي فسحة كي أقف عند الشباك لأكون أقرب ما يمكن من الدفين (عليه السلام)، وهذا لم يكن متاحاً بسهولة لكثرة الزائرين على الرغم من أننا اخترنا – حسب نصيحته هو – الذهاب ما بين المناسبات الشعبانية التي يكثر فيها الزائرون إلى درجة لا يعود ممكناً الوصول.

*

جسور وطرق تختصر المسافات

كان واضحاً كم ساعدت الجسور الجديدة والطرق الجديدة، والتي كان بعضها في بداية التصاميم عندما غادرت العراق في بداية الثمانينيات، على الربط السريع بين المناطق المتباعدة من بغداد.

في تلك الأيام، كان الذهاب إلى المناطق الجديدة، مثل الخضراء والعامرية، يستغرق وقتاً أطول من الآن، على الرغم من كثرة عدد السيارات التي تزحم الشوارع كثيراً.

ولكنها – من جانب آخر – ساعدت في غربتي عن بغداد الحالية، حيث تغيرت الشوارع وبعض الجسور، كما تغيرت المناطق، وتغيرت المسافات أو الوقت المطلوب للتنقل بين المناطق المختلفة، قديمها وحديثها.

*

مجمع سكني حديث جميل

زرنا أخي يقظان في شقته في مجمع سكني جديد قريب الدورة إسمه "مجمع الأيادي" (يسمونه بسكولاته لأن معمل بسكولاته القديم في ظهره!).

مجمع جميل في بناياته، بشكلها الخارجي كما في المداخل، وبتصميم الشقة من الداخل. أيضاً، الشوارع الداخلية للمجمع مرصوفة بشكل ممتاز، والصيانة جيدة (كل السكان يدفعون مبلغاً شهرياً).

في كل عمارة مصعدان، واحد منهما يعمل عندما تنقطع الطاقة الكهربائية.

في المجمع مدرسة ومرافق أخرى، ولكن السوق/المول لم يتم.

الأمن في المدخل مضبوط كما يبدو، وإن كان لم يطلب منا هويات.

-

مثل هذه المجمعات تنتشر الآن في بغداد (وغير بغداد)، ويقبل عليها الناس لأن أسعار العقارات ارتفعت بشكل غير مسبوق ولا منطقي فصار سعر الشقة ممكناً مقارنة بسعر البيت. هذا إضافة إلى مميزات السكن في الشقق: الأمن، صيانة أقل لأنه للداخل فقط، لا توجد حديقة تتطلب جهداً للمحافظة عليها (وهذا لمن لا يهمه الحدائق).

*

القرآن والأذان بين القاهرة وبغداد

عندما نزور القاهرة عاصمة مصر فإن من أهم ما يجعل الأجواء مختلفة هو صوت الأذان الذي يصدح من منائر المساجد المنتشرة في كل مكان. هذا الأذان الذي يشجع المتكاسلين على القيام لصلاة الفجر، ويشجعهم على عدم تأخير الصلوات الأخرى عموماً. أو كما تقول زوجتي: هنا الشيطان مخذول!

(وإن كان أحد الأصدقاء المصريين الأعزاء – رحمه الله تعالى – يجيبها: لا والله، إنه هنا منصور!)

في بغداد، كما في غيرها مما زرنا، الحال نفسه، حيث الأذان يصدح في كل وقت.

أيضاً، قراءة القرآن الكريم قبل أذان الفجر في بعض المساجد، بينما يكتفي المؤذن في غيرها بالصلاة على النبي (ص) أو قراءة بضع آيات من الكتاب العزيز.

الفارق بين بغداد والقاهرة هو أنك في الثانية لا تسمع إلا الطريقة المصرية في الأداء، في حين في بغداد تسمع الطريقتين: العراقية والمصرية... وكما أحب المصرية (ولا سيما من القراء الرواد الذين لن يجود الزمان بمثلهم: محمد رفعت ذو الصوت الأول في العالم ربما، والشعشاعي، ومصطفى إسماعيل، والشعيشع، وعبد الباسط عبد الصمد، والمنشاوي رحمهم الله جميعاً – الستة الذين لا مثيل لهم) فإني أعشق الطريقة العراقية، في المقامات التي يستخدمها القراء (يسمونها أطوار، يريدون التفريق عن مفردة مقامات للأغاني – ولكنها هي هي!)، كما كان من المبدع الحافظ خليل إسماعيل والحافظ صلاح الدين والحاج محمود عبد الوهاب رحمهم الله جميعاً، ثم بعض الحاليين كعامر الكاظمي وغيره من أصوات لا أعرف أسماء أصحابها...

الطريقة العراقية فيها شجن أشد، فحال العراق والعراقي هو الحزن المقيم... نعم، الطريقة المصرية فيها بعض الشجن أيضاً، لأن المشرق كله يحب ذلك، ولكن ليس كالعراقية.

*

الأُنس بالناس والطرقات وكل شيء

أبنية سيارات مقاهي بيوت مساجد حسينيات متاجر مختلفة مطاعم مدارس مستشفيات جسور وغيرها من منشآت، بأسمائها وأجوائها العامة، نكهتها عراقية، تبعث السعادة في المتجول بينها وحولها ونحوها وفيها.

حتى في الشوارع العامة المزدحمة، وحتى التي هي في حالة بائسة للشارع والأرصفة وحتى المحلات، فإنني كنت أشعر أنني في مكاني الذي غادرته وبقي معشعشاً في ضميري. هذه مني وأنا منها، وهؤلاء أهلي – بغض النظر عن الشكل والملبس والهيئة والجلسة والصوت والحركات.

يشتد الإحساس بالراحة عندما تتحدث معهم – سائق التاكسي، البائع في المتجر، الشخص الواقف إلى جانبك في مقهى أو صيدلية.. تأنس بهم...

وتأنس، وتجد شيئاً من التسلية، وأحياناً الضحك، في اللقطات الفكاهية. مثلاً في شارع الكريعات الرئيس هناك مطعم شعبي اسمه **"أُضرُب وُاكْلُب"**، أي كُل أكلة جيدة ثم اخرج**!** لعل أماكن الجلوس قليلة فلا يريد الناس أن يجلسوا بعد إتمام تناول الطعام**!**

أو مطعم آخر، شاهدت له فرعين في منطقتين مختلفتين، إسمه **"جُوعان اطبُك"! أي** إذا كنت جائعاً أركن سيارتك وادخل**!**

وجدت الأنس بالناس وما حولهم. وكما هي شخصيتي (والتي تختلف تماماً عن الذين يريدون بغداد أن تكون دبي**!** أو الذين ينتقدون بغداد أو القاهرة مثلاً لأنها غير منظمة أو نظيفة كدبي والدوحة لأن مزاجهم وطموحاتهم ونظرتهم للحياة عموماً ليس الحضارة العميقة أو العبق التاريخي أو العنفوان الشعبي)، كان الأنس أكثر بالمحلات الشعبية – في ناسها وأبنيتها وجميع ما فيها...

*

مضيفتنا: السيدة عالية الهلالي – خدمة عشر نجوم!

السيدة عالية هي الأخت الوسطى لزوجتي، فهي أقرب إلينا سناً، والعلاقة بها كانت أكثر تواصلاً عندما كنا في العراق كونها – مثل علي – سكنت إلى جانب دار أبيها، والذي هو على بعد بضعة دور من دارنا.

إستضافتنا، في دارها في منطقة الكريعات والذي كانت قد انتقلت إليه قبل سنة ونيف، في دارها طيلة مدة الزيارة العراقية، كما صحبتنا في زيارات الأئمة (ع).

كانت الإقامة في دارها مريحة تماماً، وبالفعل شعرنا أننا في دارنا، واستأنسنا بالأحاديث المختلفة، كما بالخرجات إلى الأهل وغيرها.

لم تدخر أم مروة جهداً في توفير الراحة والطعام ولا في ترتيب النقل (من خلال سائقي الأجرة الذين تستخدمهم)، مع أن أوقاتنا – زوجتي وأنا – تختلف عن الأوقات التي تنظم حياتها، ومع أنها صارت تحضر وجبات الطعام اليومية في الوقت الذي ربما لا تقوم بذلك لنفسها عادة. كما استضافت الذين زارونا، أحياناً مع تهيئة مائدة الغداء العامرة.

وإنه لمن الصعب أن ينزل اثنان في دار شخص آخر – مهما كانت درجة القرابة وقوة العلاقة – مدة شهر ولا تحدث مشكلة أو إزعاج أو شيء يكدر صفو الأجواء؛ لكننا لم نسمع من عالية كلمة واحدة فيها شيء من هذا مطلقاً... أكيد إنها تعاملنا معاملة الأخت الكبيرة لإخوتها الصغار، مع ما يعنيه من التجاوز على الإزعاجات في الوقت والطلبات وسائر تفاصيل الحياة اليومية، ولكن أن يمضي شهر كامل دون أي شيء فهو مما يشير إلى شخصية عالية وكرم أخلاقها ومحبتها.

أما الأحاديث معها فقد تنوعت من القضايا الشخصية إلى القضايا العامة، والتنوع فيه تفاصيل مختلفة جعلت الأمسيات مؤنسة مريحة مفيدة. هذا مع الاختلاف في وجهات النظر في بعض القضايا.

ومن أكثر ما يهمني هو العمل الثقافي عموماً، فكان الحديث عن جهودها المثمرة في إخراج بعض النتاج الأدبي لوالدها الباحث والأديب الكبير عبد الرزاق الهلالي (رحمه الله) (22) حديثاً مشوّقاً مفيداً في معرفة لقطات من الواقع الثقافي في العراق.

طلبت منها إعطائي فكرة عن العمل الذي قامت به قبل بضع سنوات في تهيئة بعض مؤلفات المرحوم والدها للنشر وبالفعل خرجت إلى السوق. دراسة الأخت عالية الجامعية كانت اللغة العربية، فلا بد أن هذا له مدخلية في ولعها كما في جهودها هذه.

من هذه المؤلفات "معجم العراق" الذي ألفه نحو سنة 1950 ونشرت منه 3 أجزاء. إنه لمما يلفت النظر ذلك الجهد الكبير في وضع معجم للبلاد، والمعجم يعني الإحاطة بجميع المفردات المهمة وبعضها التفصيلية حسب الحروف الأبجدية، بحيث يكون مرجعاً للطلبة والباحثين؛ جهد قام به وهو في الثلاثينيات من عمره، وحيث لم يكن هناك حاسوب يقوم بالحفظ والتصحيح والتغيير وإعادة التوزيع وغير ذلك أو انترنت يأتيك بالمعلومة بضغطة مفتاح، بل ولم تكن المصادر الورقية كثيرة هي الأخرى... كما يلفت النظر إلى الجهد الكبير للأخت عالية في تدقيق مثل هذا المؤلف الدقيق وتصفيته من الأخطاء إلى أن أوصلته إلى الصورة النهائية التي طبع فيها.

كتاب آخر للهلالي نشرته "شعراء من العراق"، عرض فيه المفاصل المهمة لأربعة عشر شاعراً عراقياً في مدة زمنية استغرقت من سنة 1852م ولادة الحاج محمد حسن كبة وحتى وفاة خالد الشواف سنة 2012م. والشعراء ليس جميعهم من أشهر الشعراء، بل إن معظمهم لا يعرفهم أكثر الناس ولا سيما غير المهتمين؛ فلم يورد فيه حتى جميل صدقي الزهاوي الذي تخصص فيه الهلالي (بحيث كتب فيه خمسة مؤلفات شعرية بحثية)، . تداخل التناول عرض الشخصيات مع الأحداث المتعلقة ببعض القصائد، وكل ذلك مع رأي المؤلف – الهلالي – في القصائد والشعراء بما يوفر للباحث والأديب إطلالة من أديب باحث خبير تعين على تكوين الأفكار بخصوص الشعراء وتلك المرحلة من العراق.

أما من كتبه من أصبحت مراجع لطلاب الدراسات العليا وغيرها، بل لأي باحث في ذلك الشأن، فهي مجموعته عن "تاريخ التعليم في العراق"، وأولها "في العهد العثماني 1638-1917م"، وثانيها "في عهد الاحتلال البريطاني 1914-1921م"، وثالثها وأخيرها "في عهد الانتداب البريطاني 1921-1932م". أتذكر مرة أو مرتين وكنت في بيتهم، ورن جرس الباب في الخارج، وكان الوقت مساء، وإذا به طالب ماجستير يحتاج إلى هذه الكتب وبقي يسعى باحثاً عنها إلى أن لم يجدها في السوق أو في المكتبة الوطنية (!)، فدلّوه على دار الهلالي فجاء يطلبها.

هذه الكتب عملت عليها مضيفتنا وأختنا عالية لنحو ثلاث سنوات حتى أعدتها للطباعة والنشر في طبعة جديدة خرجت قبل بضع سنوات.

وكانت عالية قد نظمت بالتعاون مع "مؤسسة المدى" الثقافية يوم ثقافي مخصص لعبد الرزاق الهلالي رحمه الله، والذي كان – كما حدثتني – يوماً ناجحاً جداً تحدث فيه المهتمون هناك. وقد نشرت المدى على صفحتها الإلكترونية خلاصات للأمسية في كل خلاصة جانب من جوانب العطاء الثقافي الأدبي لذلك الأديب الكبير.

لم تكتف السيدة عالية بهذا، ولكنها قررت – بالاتفاق مع ورثة الهلالي الآخرين – أن تهدي مكتبته الهامة إلى مركز ثقافي جديد اسمه "المركز الثقافي البغدادي" في شارع المتنبي الشهير، كان قد بدأ بتخصيص غرفة لمكتبة العلامة الكبير "أحمد سوسة" والثانية لمكتبة الأديب الكبير "كوركيس عواد". عملت في غضون سنتين ونصف على الفحص والتبويب والترقيم، وعلى الترتيب بين الكتب والمجلات الدورية والمخطوطات. وكان من ضمن الإهداء بعض قطع الأثاث أو ما كان يستخدمه والدها رحمه الله، من أجل أن تستكمل جو الغرفة التي خصصت لمكتبته.

(ذكرت أنني لم أستطع زيارة المركز والمكتبة بسبب وعكة صحية، ولكن زارتها زوجتي والتقطت صوراً أعطتني فكرة عامة عن المكان.)

إقامتنا في دار الأخت عالية منحتنا أيضاً فرصة التعرف على جانب مهم يومي من حياة العراقيين: ما بين المولدة والوطنية! فقد عشنا التبادل في الخدمة الكهربائية عدة مرات كل يوم، بحيث صرنا نعتاد عليها.

لقد كانت إقامتنا مع الأخت العزيزة عالية بحق ليست خدمة خمس نجوم كما في الفنادق، ولكن عشر نجوم! لا نستطيع شكرها كفاية – جزاها الله عنا خيراً.

*

هل من اقتراحات؟!

لو كنت من عراقيي الداخل لربما انزعجت من أي عراقي يأتي من الخارج للزيارة ثم يجلس ينظّر عليهم ماذا يتوجب عليهم فعله وماذا يتوجب عليهم تركه، لا سيما وأن الكثيرين من عراقيي الخارج لم يمارسوا هذه المقترحات أو يعملوا في مجالاتها، ولكنهم أقاموا وعاشوا في بلدان فيها هذه النظم والممارسات الإدارية والتقنية والخدمية فصاروا يعرفونها واعتادوا عليها وعلى فوائدها (وبعضهم ربما صار ينظر بتعالٍ إلى بني جلدته في الداخل، أتحدث عن العراق وغير العراق).

ثم إن عراقيي الخارج – هكذا أظن مما أقرأ من تعليقاتهم وانطباعاتهم عن زياراتهم للعراق – يبدو أنهم يتصورون أن عراقيي الداخل جالسون لا يقومون بعمل، فلا دراسة ولا دورات تدريبية ولا بعثات إلى الخارج تأتي بالفائدة ولا تعاون وتبادل للخبرات مع الدول الأخرى ولا شيء، فهم على أحر من الجمر في انتظار عراقيي الخارج كي يأتوهم ويعلموهم ما يصنعون! يا جماعة، العراقي في الداخل عنده من الخبرة الكبيرة جداً في معترك الحياة ما لا يملكه الذين أقاموا في الخارج، أو أكثرهم على أقل تقدير؛ إضافة إلى التطور العلمي في التقنية والإدارة والصحة، وحتى في التعليم الذي عليه الإجماع أنه تأخر كثيراً عما كان عليه من قبل. حتى الخدمات فإن هناك مشاريع تسعى للنهوض..

ولكن يبدو أن الكثيرين لا يعون حجم التآمر على العراق من بلدان الجوار والإقليم ومن امبراطورية الشر وحليفتها المدللة إسرائيل. ولا أدري كيف لا يعون وهم يرون رأي العين كيف أن مشكلة الكهرباء (والتي هي مؤلمة جداً في بلد يمكنه – بإمكاناته في الطاقة من النفط والغاز والهواء والشمس وحتى الماء الشحيح الآن، وإمكانات مهندسيه وفنييه وعماله وإداريه وخبراتهم الكبيرة، أن يتمتع بما يشاء من الكهرباء وأن يصدر إلى الآخرين) تتعطل بالأمر السلطاني الأمريكي ضد كل عقد من عقود الكهرباء تعقدها الدولة العراقية مع العالم (ثلاثة عقود وقعت مع سيمنز الألمانية لحد الآن – سيمنز الألمانية الغربية، وليس مع شركة روسية أو صينية كي تقوم قائمة الأمريكان!)

وإذا كان لا بد من قول شيء هنا، وخصوصاً من شخص مثلي تفاعل مع أحوال العراق بطرق مختلفة لا مجال لذكرها (أي لم أكن جالساً في الخارج "رِجِل عَلَه رِجِل" أنظّر على العراقيين)، فيمكن القول:

- العراق، الأرض، يمتلك خيرات كثيرة، فوق الأرض وتحت الأرض، ما يمكنه أن يقدم فرص العمل المتنوعة على الدوام، ما يمكّن الشعب العراقي من إنتاج حضارة مدنية تليق به؛
- العراق، الإنسان، يتمتع بدرجات عالية من الذكاء، والعنفوان، والنخوة، والكرم، وحب الآخرين، مع درجة مقبولة من الجد والاجتهاد في العمل، والدليل عليه هذا الصبر والمواصلة في ظل الحكم الساقط المجرم وحروبه ضد شعبه وضد الجيران وما نتج عنها من كوارث ومصائب تعاونت معه فيها قوى الشر العالمية، ومع ذلك تجد العراقي ينهض ويمارس دوره على الرغم من استمرار التآمر ومن الفشل والخيانة من سلطات ما بعد 2003؛
- والعراقي ذكاؤه فيه جزء أسميه "ذكاء تدميري"! فالأذكياء لا يتقبلون الانقياد إلى الآخرين بسهولة، ولهذا فهم ينتقدون ويشكلون ويعترضون ولا يرضون بالحاكم بسهولة، ما ينبغي أن يتم توجيهه في القنوات الصحيحة المنتجة؛

- ما يملكه العراق، الوطن (أي الأرض + الشعب + التاريخ)، من ثروات وقدرات يتيح له ما يلزم من التوقف عن اعتماد النفط في حياته بدرجة تكاد تكون تامة، وذلك أولاً لأن هذا يعني الارتهان إلى أسعار النفط التي هي ليست بأيدي العراقيين، كما أن التحولات المتعلقة بالبيئة وعلاقة مصادر الطاقة بها تعني أن النفط ربما يكون عمره قصيراً أو أقصر مما هو عمر الاحتياطي داخل الأرض، ما يعني أن يكون النفط مصدراً للمال الذي يوظّف في بناء مشاريع هي التي ستنتج زراعياً وصناعياً وخدمياً وثقافياً وفي شتى المجالات، مما يتيح للدولة دفع رواتب الموظفين والمتقاعدين ليس بالاعتماد الكلي على النفط؛
- إستطراداً، فإن هذا النهج المتكامل يعني توظيف القدرات الهائلة للعراق في الزراعة والصناعة والتجارة (في جزئها التصديري وليس الاستيراد وحده) والسياحة على تنوعها (الآثار القديمة وما بعدها من حقبات، والجغرافية، والدينية)، والنهضة التقنية والتي ستسهم بالضرورة في نهوض كبير في التعليم الجامعي وما قبله؛
- هذا لا يكون إلا بأمور: الأول حل مشكلة الكهرباء، والثاني حل مشكلة المياه، والثالث حل مشكلة البيئة (من الجفاف والعواصف الرملية وغيرها)، والرابع المعلوم مشكلة الفساد المالي والإداري وغياب قوة القانون في محاربته، فهذه الأربعة تعني المنشآت التعليمية والبحثية، وتعني الحالة النفسية للمواطنين كلهم، والحالة الصحية، والإنتاج الزراعي والصناعي، والمرافق السياحية والخدمات كلها، فالنهضة الشاملة من أجل عراق يستحقه العراقيون لا بد منها مهما كانت الصعوبات والتحديات والمؤامرات.

**

هوامش التعريف بالشخصيات

(1) المرحوم عبد الله الفياض العلي العامري توفي في أوائل الستينيات، لواء شرطة متقاعد وأحد ملاك الأراضي، إضافة إلى أن أخاه الأكبر فهد شيخ عشيرة ألبو

عامر ومقرها منطقة الراشدية شرقي بغداد، وابنه الوحيد سعدون رحمه الله، وبناته، ووالدتهم خالة أم سعدون، لهم في النفس مكانة خاصة.

(2) أخي الأكبر المحامي صفوان نعمان ماهر، يكبرني بثماني سنوات، يعمل في المحاماة لأكثر من 50 عاماً، لم يبطئ عن الواجبات (ولا سيما الوفيات ومعاملاتها والدفن والمقابر، أو المشاكل، أو غيرها، للأقرباء وغيرهم)، صبور على الحياة وتفاصيلها، شجاع، ناله من السجن والتعذيب في العهد الساقط. كان أبو عمر يعاملني وكأنني الإبن، من حيث التسلية والنزهات كما من حيث الإعانة المالية وأنا في المدرسة عندما ينتهي الراتب الشهري قبل نهاية الشهر، أحياناً بمدة طويلة! من المؤسف له أننا لم نلتق مذ خرجت من العراق، على الرغم من رحلات عديدة لي إلى القاهرة (التي يحبها هو، والتي زرناها سوية – مع ابن خالي وصديقي – في العطلة الربيعية في شتاء 1976 وأنا في الصف الثالث كلية)، ورحلات عديدة له إلى الأردن وتركيا والخليج.

(3) إبن أخي عمر (أكبر من ابنتي مريم بثلاثة أشهر فقط)، حيث ولد ونحن في العراق، ثم جاء إلى انجلترا مرافقاً لزوجته في دراستها الدكتوراه، والآن مرة أخرى في انجلترا هو يدرس على درجة الدكتوراه.

(4) زوجة أخي السيدة خالدة (التي تزوجها في التسعينيات بعد وفاة زوجته أم أولاده وابنة عمي وهي شابة – هامش 14)؛ زوجة ابن أخي، وهي ابنة ابن عمي؛ إبن أخي الأصغر إبراهيم؛ بعض أحفاد أخي...

(5) رياض صديقي منذ الصف الثاني متوسط، وصار من أقرب الأصدقاء الإخوة حتى خروجي من العراق (على الرغم من أن الجامعة فرقتنا حيث درس الهندسة المدنية في جامعة البصرة، ولكن في العطل كلها نحن سوية)؛ كنت قد التقيت به سنة 2006 في القاهرة، حيث قدم وقتها مع والدته رحمها الله – مصرية الجنسية – حيث قدّما سفرتهما إلى مصر من أجل اللقاء بي، فيعتبر ممن لم أفارقهم كثيراً كالآخرين – فقط 17 سنة!

(6) أخي الثاني يقظان، يكبرني بأقل من 6 سنوات، تقاعد بعد العمل أستاذاً لمعلمي الفنون في المدارس (في اختصاص الخزف/السيراميك الذي نال فيه شهادة البكالوريوس من أكاديمية الفنون الجميلة) والعمل بالخزف (ونتاجه عرضه في المعارض الفنية وغيرها). كان هو الآخر يعاملني معاملة الكبير للصغير، وبيننا منافسة في كرة القدم في الحديقة (!)

(7) في طفولتي كان يقظان يأخذني إلى السينما وغيرها. مرة أخبرني عن مفاجأة، وكانت الذهاب إلى شارع السعدون، وقبل الدخول في السينما أو بعدها، دخلنا إلى محل الطرابلسي، وصعدنا إلى الطابق الأول، وطلب من النادل "زنود السّتّ"! سألته: ما هذا؟ قال: انتظر. وجاء النادل بصحنين كل واحد فيه عدد اثنين زنود الست – وكانت تكفي أول لقمة، بقيمرها العراقي في الداخل والفستق المبروش على قطعة المربى في الخارج، لأعلم أنها كانت تستحق الوصف مفاجأة! (في ذلك الوقت سعر الواحدة كان 35 فلساً!) ولقطة أخرى، مفاجأة أول مرة أذوق عصير الجزر – كان المحل، الكائن في رأس الحواش في الأعظمية في زاوية التقاطع بين الشارع الرئيس وشارع عشرين، يقدم عصير البرتقال والليمون فقط، فأضاف الجزر إليه – البرتقال بـ 50 فلساً والجزر بـ 30 فلساً – طبعاً الفارق كبير بين الاثنين!

(8) علي الهلالي، أخ زوجتي، والذي كان يكبرني بسنة واحدة فقط، وبقي عندما نتهاتف لا يناديني إلا بـ "غسّوني" تحبباً وإبقاء على علاقة الماضي القديم. إلتقينا أولاً في الشارع فقط، حيث كنت قد تعبت بعد ساعات طويلة في بيت أخت زوجتي وبيت أخي.

(9) السيدة انتصار تقاعدت منذ زمان بعد تدريس الكيمياء في المستويين الثانوي أولاً ثم الجامعي بعد حصولها على الماجستير من أمريكا (عندما صاحبت زوجها في دراسته لنيل الدكتوراه في الاقتصاد الزراعي من هناك)، فهي من أحب الناس إلينا – أنا وإيمان اختها الصغرى –، وهي تشعرك بالثقة والطمأنينة،

إضافة إلى إشاعة أجواء لطيفة سهلة مرحة... استضافتنا عدة مرات على قِصر الزيارة، والتقينا بابنتها زينب وزوجها.

(10) الدكتور محسن الشيخ راضي، من وجوه أسرة الشيخ راضي العلمية في النجف الأشرف، وعضو القيادتين القومية والقطرية لحزب البعث في 1963، ثم المنشق عن الحزب بعدها، وقد دون الكثير من ذلك التاريخ المهم في كتابه "كنت بعثياً" الذي صدر مؤخراً بجزئين، حريّ بالمهتمين قراءته، لمعرفة التاريخ كما حصل، ولمعرفة كيف يمكن للمرء أن ينقد ذاته وجماعته عندما يكون الله تعالى وحقوق عباده البشر أهم عنده من التعصب الحزبي أو الفئوي أو التضخم الذاتي، والأستاذ في كلية الزراعة جامعة بغداد، والمؤسس لمشاريع زراعية منتجة خاصة، والغربة عنهم أخف من الآخرين حيث التقينا في لندن قبل 15-20 سنة – نعم، ليست قليلة، ولكنها نصف مدة الفراق عن الآخرين.

(11) السيدة سلامة شخصية محبوبة للجميع، وما ذكرتها إلا وطرق سمعي ذلك الموقف منها يوم خطوبتي، حيث كان الجميع – خطيبتي/زوجتي وأهلها وأهلي والأصدقاء – في حديقة دارهم ما عداي وأخي صفوان (حيث بقي معي في البيت يشرف على ترتيب حالي!)، وما أن دخلنا – وأنا ببدلة جديدة أنيقة – واتجهت إلى الممر الخارجي إلى الحديقة رأيت سلامة في بداية الحديقة، رأتني من خلال ظلمة الممر الذي بين البيت والأشجار، فصاحت: "إجه/جاء العريس!" وإذا بالحديقة تضج بـ "هلاهل" ملأت الأجواء! ماذا أقول؟ صرت كما يقول العراقي الذي يجد نفسه في حرج شديد: "يا كاع شُكِّي وابلعيني"! لحظة لا تنسى! زوجها، السيد واثق المتولّي، متقاعد بعد العمل كموظف إداري وأيضاً كأستاذ رياضيات. شخصية محترمة وقورة، سعدت بالحديث معه.

(12) الدكتورة إنتصار عبد القادر ماهر طبيبة أخصائية بالنسائية، تصغرني بثلاث سنوات، فهي ابنة عمي الحبيب عبد القادر رحمه الله، وأخت أخيها الكبير رامي، الذي له محبة خاصة، وكان أحد أسباب دخولي الهندسة الكهربائية (حيث سبقني إليها بخمس سنوات، وشجعني عليها، قد دخلها وبإمكانه دخول الطب أو أي

فرع في الهندسة، ما حصل معي بعد ذلك – أستاذاً في إحدى الجامعات الأردنية، إلتقيته في لندن قبل بضع سنوات ثم في العام الماضي)... وجاء معها ابنها مصطفى، وخالتها التي أعادت إلى الأذهان تلك العلاقات القديمة الجميلة حيث كانت لنا بهم أوثق العلاقات.

(13) السيدة نضال الهلالي، أصبحت بعد وفاة والدة زوجتي بمقام الأم، وبالفعل لم تزل دائمة السؤال والتفقد لنا، فالتواصل معها جيد على الهاتف في المناسبات وغيرها؛ تقاعدت عن العمل منذ زمان، ولها اهتمام كبير بالآداب والتاريخ، تنشر مقالات لها على شبكات التواصل الاجتماعي، كما تنشر لقطات متنوعة من ذكريات والدها المرحوم عبد الرزاق الهلالي وكتبه المهمة التي سطّر في بعضها ذكريات تلقي أضواء على الأوضاع السياسية والاجتماعية في العراق في حقبة العهد الملكي.

(14) ابنة عمي نداء عبد القادر ماهر، كانت تعيش معنا بعد زواجها من أخي، كما كانت ابنة عمي الأثير عندي (السيد عبد القادر ماهر، أصغر أعمامي، كان يعدني صديقاً له على فارق 30 سنة من السن بيننا، جمع بين سرعة البديهة وخفة الدم والمعرفة الكبيرة بالناس كونه كان في سلك الشرطة – آخر منصب له مدير شرطة الأعظمية، والتصوّف، توفي سنة 1980).

(15) رعد عبد القادر ماهر، يكبرني بسنتين، وكان يعمل في الصحافة، شاعراً مجيداً يعتبرونه من أهم شعراء ما يسمونه بقصيدة النثر في السبعينيات والثمانينيات، كان يزورنا كثيراً ونأنس بأحاديثه (توفي سنة 2002 عن 49 عاماً).

(16) خالي صفاء كان ذا ثقافة واسعة، حاله حال موظفي السلك الدبلوماسي الكبار في العهد الملكي (حيث خدم قنصلاً عاماً للعراق في بروكسل واسطنبول وآخر مكان في رام الله-فلسطين، قبل إحالته إلى التقاعد عند ثورة 14 تموز 58)؛ غاية في الأناقة والمشي باعتداد. كان محامي الحضرة الكيلانية وعميد آل الكيلاني السيد يوسف الكيلاني رحمه الله. في أيام الابتدائية كان يزورنا كثيراً، ويلعب معي الطاولي والجائزة درهم/خمسون فلساً للفائز، فيجعلني أفوز

ويعطيني الدرهم، والذي كان يضاعف من "يوميتي" في المدرسة الابتدائية (كان الدرهم يفعل الكثير يومها!) أحياناً كان يأخذني إلى الحلاق، ولكنه بعد الحلاقة يأخذني إلى المكتبة لشراء المجلات والنستلة وما شئت.

(17) وأما خالي فخري، فكان كالشباب، يأتي إلى بيتنا فيملؤه بهجة وكلاماً متنوعاً، ولا يأتي عيد ميلادي إلا وتكون هديته شيئاً جديداً لم أعهده. تذكرت ذلك وتذكرت كيف أخذني إلى صديقه صادق الخرسان صاحب محل "عالم الطوابع" في شارع الرشيد، والذي قام بتحسين مجموعتي من الطوابع بإضافة النقص إلى بعض المجموعات (سيتات كما كنا نسميها)... هذا غير السينما التي كان يأخذنا إليها أحياناً.

(18) ودفنت في مقبرة السيد فخري الذي توفي قبل ذلك بسنوات، ودفن معه بعض أقربائه...

(19) كنت أتذكرها، كمديرة لإحدى مدارس محلتنا، وأم لعلي أحد أصدقاء المحلة، وصديقة لأمي رحمها الله، وثم أم زوجتي، فأصبحت قريباً منها، وبقي التواصل على الهاتف بعد أن زارتنا مرة واحدة في لندن سنة 1990. تذكرتها، وهي من هي في حضورها وشخصيتها المؤثرة، التي يحترمها ويشيد بها كل من عرفها أو سمع بها. تعطي الثقة والطمأنينة لمن يفزع إليها في المشاكل أو الهموم – وكما كانت تقول أختي المرحومة وجدان – حتى وإن لم يخرج منها بكلام قاطع. أما أختي الكبرى نيران، فما أن تقوم زوجتي بأي عمل فيه قدرة أو إبداع أو جمال إلا وعلقت عليه: "بنت باكزة"!

(20) السيد فخري المعتوق كان مديراً في دائرة البعثات العراقية؛ وكان عديلي الأكبر، وذا شخصية كريمة محبة خدومة للآخرين.

(21) كما من الأعمال الخيرية التي يقوم بها في تفقد المحتاجين والثكالى والأرامل والأيتام وينسق مع زوجتي وغيرها في جمع الإعانات التي تمكن من سد بعض الحاجات لهؤلاء المظلومين.

(22) عبد الرزاق مجيد الهلالي، 1916-1985م، باحث وأديب تنوعت مواضيع أبحاثه ومؤلفاته. ولد ودرس في البصرة، وانتقل إلى بغداد ليدرس وينال شهادة البكالوريوس في اللغة العربية من دار المعلمين العالية. شغل مناصب متعددة، منها في التعليم، ومنها في البلاط الملكي، ومديراً للإذاعة، ومديراً للمصرف الزراعي. استثمر دراسته والعمل في المواقع المختلفة في تأليف الكتب المهمة التي صار بعضها مرجعاً لا نظير له. وبعد التقاعد سنة 1969م وإلى حين وفاته تفرغ للبحث وتأليف الكتب وكتابة المقالات، حتى وصل عدد كتبه المطبوعة إلى 29 وأكثر من 150 مقالاً في المجلات العراقية والعربية. من أوائل مؤلفاته في أربعينيات القرن العشرين "صور وأحاديث اجتماعية" و "ولاّدة وإبن زيدون"، ثم في الخمسينيات "معجم العراق" ووضع معجماً عن العراق باللغة الانجليزية. واستفاد من عمله مديراً للمصرف الزراعي في تأليف عدة مؤلفات مفيدة مثل "الهجرة من الريف إلى المدن" عن القضية الإشكالية في العراق وغيره من البلدان، و "المجتمع الريفي العربي والإصلاح الزراعي". وكتب عن الشعراء مثل "شعراء من العراق" و "أدباء المؤتمر" عن مؤتمر بغداد سنة 1965م، وعدة مؤلفات عن الشاعر العراقي الشهير "جميل صدقي الزهاوي" منها "الزهاوي في معاركه الأدبية والفكرية" الصادر في الثمانينيات. وصدر له "سبع سنوات في التشريفات الملكية" الذي يحكي ما عاصره من أحداث وتفاصيل في داخل الدائرة الملكية العراقية في المدة 1947-1954م. وطبعاً الأجزاء الثلاثة عن تاريخ التعليم في العراق في العهد العثماني وعهدي الاحتلال والانتداب البريطانيين. هذا إضافة إلى نظمه الشعر في بعض الأحيان. على الصعيد الشخصي، يمكن جمع شمائله في كلمة واحدة: كان رجلاً فاضلاً بمعنى الكلمة، صبوراً على متاعب الحياة، متعالياً عن الصغائر، ذا همة عالية حقاً في طريق البحث والتأليف الذي أحبه وأولع به وأنتج فيه الكثير. رحمه الله.